محمود تيمور

ملامح وغضون

صور خاطفة لشخصيات لامعة

الناشر مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٩ بركة الشابورى بالحلمية الجديدة

BOBST LIBRARY
3 1142 02884 4390

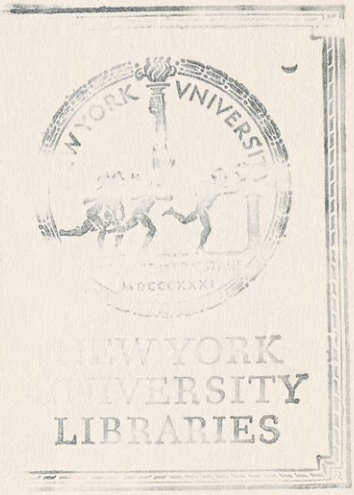

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

Date Due

Demco 38-297

T
Taymūr, Maḥmūd

محمود تيمور

Malāmiḥ wa-ghuḍūn. ...

ملامح وغضون

صور خاطفة لشخصيات لامعة

s
front
NE62-86

الناشر مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

B

الطبعة الأولى — ١٩٥٠
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

استقبال

لحضرة صاحب المعالى الدكتور طه حسين بك

الكلمة التى ارتجلها حضرة صاحب المعالى الدكتور طه حسين بك وزير المعارف وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى استقبال « محمود تيمور بك » بمناسبة تعيينه عضواً بالمجمع ، وذلك فى الجلسة العلنية التى عقدها المجمع يوم الخميس ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٠

سيدى صاحب المعالى رئيس المجمع .

سيدى الزميل العزيز الجديد :

إنى لسعيدٌ كلَّ السعادة بأن أنوبَ عن مجمعنا فى استقبالك ، بعد أن أظهر أعضاؤه حرصَهم على أن تكون بينهم ، وعلى أن تشاركهم فيما يبذلون من جهد لصيانة اللغة العربية والمحافظة على سلامتها ، وتمكينها من أن تكون منتجة ملائمة لمقتضيات الحياة على اختلاف عصورها .

فأنتَ تعلم أن المجمع ليس نظاما مقصوراً على عصر دون عصر ، وإنما هو نظام خالد ماخَلَدَت « مصر » ، وكل واحد من أعضائه إنما استعار من خلود هذا النظام لَقَبَه الذى عُرِفَ به المجمعيون فى « فرنسا » وهو لقب « الخالد » . فنحن إنما نَخْلُدُ بخلود هذا النظام الذى أنشئ ليبقى ما بقيَتْ « مصر » ، وما بقيَتْ اللغة العربية .

وأنتَ منذ اليوم قد أقبلتَ لتشاركنا فى هذا الجهد ، ولتشاركنا فى تمكين هذ النظام من الإنتاج . وقد أنابنى المجمع ، ووكل إلىّ الرئيس ، أن أهدِىَ إليك لقب المجمعيين ، فتصبحَ خالداً من الخالدين .

وصدِّقنى أيها الزميل العزيز إنك لم تكنْ فى حاجة إلى هذا الخلود المستعار ، فقد اتخذت لنفسك من جهدك وخِصْبِ ذهنك ونُضْجِ عقلك وذكاء قلبك وإنتاجك الرائع المبدِع خلوداً أبقى وأشمل وأخصّ من هذا الخلود الذى لا تكسبه من أنفسنا ، وإنما نستعيره استعارةً من عمل يبقى هو ونزول نحن . فأما أنتَ فإن الخلود الذى اكتسبتَه لنفسك يبقى مهما تكن الظروف ، ومهما تكن الأحوال ، سواء اتصلتَ بالمجمع أم لم تتصل به . وأنت تعلم أن فى المجمعيين شيئاً غيرَ قليل من الفُضُول ، وأن فيهم كذلك شيئاً غيرَ قليل من هذه الخَصلة التى يحبها الأقلون ويُبْغِضها الأكثرون وهى خصلة البحث والاستقصاء . فليس كل الناس يحب البحث ، وليس كل الناس يستظرف الاستقصاء ، وإنما هى خَصْلة موقوفة على قوم شذّوا فى الحياة الاجتماعية ، كرّسوا أنفسهم للبحث والدرس ولاستكشاف الحقيقة والتماسها حيث تكون . وهم من أجلِ ذلك يكلفون أنفسهم من الجهد مايكلفونها ، ويتعرضون لكثير من العَبَث ولكثير من السُّخْرِيَة أحيانا . وقد امْتُحِنْتَ لكى تكونَ بين هؤلاء الناس ، فاحتملْ هذا

الامتحان صابراً ، ولك أجر المعذَّبين الممتحَنين .

وأول ما يَفْرِض عليّ هذا الموقف حين أستقبلك ، هو أن أخرج عن مألوف أوضاعنا الاجتماعية ، فأتحدث إليك بما تعلم وبما لا تعلم من أمرك ، وأُظْهِرَكَ على أشياء لعلك كنت تعرفها ، وعلى أشياء أخرى لعلك لم تلتفت إليها ولم تقف عندها . وأظن أنك لا تعرف أنك قد نشأتَ فى أسرة كريمة كل الكرم ، عزيزة كل العزة ، لها سابقة فى المجد ، ولها سابقة بنوع خاص فى حبّ الأدب والعلم والبحث والإنتاج ، والتفوق فى هذه كلها .

أقبل جدّكم مع « محمد على » الكبير ، وشارك فيما شارك فيه معاصرو ذلك البطل العظيم من احتمال الخطوب ومواجهة المِحَن والنفوذ من المشكلات ، فكان جندياً ، وكان قائداً فى الجيش ، وكان مستشاراً للأمير ، وكان مديراً لشئون بعض الأقاليم ، وأسس لنفسه ولأسرته من بعده هذا المجدَ الذى توارثه عنه أبناؤه ، والذى وَفَوْا فى توارُثِهِ والقيام عليه .

ولأمر ما أحبَّتْ العلمَ والأدبَ أُسْرَتُكَ منذ استقرتْ فى « مصر » . فجدُّك « إسماعيل تيمور » كان محبًّا للعلم ميّالا أشد الميل إلى العزلة ، حريصاً كل الحرص على أن يقرأ ويبحث ويستقصى ، مؤثراً صُحبة الكِتَاب على صحبة الكبراء والأمراء ، لا يكاد يلى مَنْصِب الحكم إلا حين يُستكره عليه استكراها ، ولا يكاد يبلغ

هذا المنصب بعد الجهد حتى يحتال ليخرج منه ويعود إلى كتبه .

ووالدك العظيم « أحمد تيمور » ليس فى حاجة إلى أن نذكر مكانه فى الأدب ، ومكانه فى العلم . وفى المعرفة باللغة العربية وتاريخها وتطورها ، وما كُتِبَ حولَ تاريخها وحول تطورها منذ أقدم العصور .

ولعلك تعلم أو لا تعلم أن المكتبةَ التى وَرِثَها أبوك العظيم عن والده ، ثم نَمَّاها وقواها وزاد فيها ، هى ثالثة مكتبات ثلاث : دار الكتب المصرية ، والمكتبة الأزهرية . ومكتبة « تيمور » . وهى عدا ذلك قد تمتاز بمجموعة من المخطوطات القَيِّمة ليست فى هذه المكتبة أو فى تلك .

كان إذن محبًّا للكِتَاب . ثم كان لا يكتفى بهذا الحبّ الظاهر الرفيق ، وإنما يحب ويريد أن يزدرد مايحبه ازدرادا ، فكان لا تصل يده إلى كتاب إلا قرأه وأعاد قراءته واستخلص منه ثمرتَه وخلاصته .

وَرِثَ كثيرا من ذلك عن أبيه ، وأضاف إلى ماوَرِثَ بجهده وكدّه ومواهبه الخاصة شيئا كثيرا .

وَعمَّتُك سبقتْ إلى مجد أدبى خالد . فليس بين المثقفين فى الشرق العربىّ بل فى الشرق كله من يجهل « عائشة التيمورية » ومن يجهل أثرها فى الشعر العربىّ والتركىّ والفارسى .

فأنت إذن سليل هذه الأسرة التى نشأتْ فى العلم والأدب والمجد

جميعا . أَلِفْتَ هذه كلها وأَلِفَتْك ، فليستْ غريبةً عليك ولستَ غريباً عليها .

والغريب فى هذا كله أن هذا التراث الكريم لم يقتصر نقله على فرد من أفراد الأسرة دون سائر أفرادها ، لم يستبدَّ به أبوك حين وَرِثَه عن أبيه ، وإنما شاركتْه فيه أخته « عائشة » مشاركة ممتازة .

ولم تستبدَّ أنت به حين وَرِثْتَه عن أبيك ، وإنما شاركك فيه أخواك « إسماعيل تيمور » و « محمد تيمور » . وشاركك « محمد تيمور » مشاركة لا أقول ممتازة وإنما أقول رائعة ، ولعله سَبَقَك إلى هذه المشاركة . كنتما شريكين فى حبّ الأدب والبحث والدرس والإنتاج ، ولكنه سبقك إلى التفوق والامتياز ، وعسى أن يكون قد وَجَّهَك التوجيهَ الذى أتاح لك ما بلغتَ الآن من نُضْج وتفوق ونبوغ .

والجيل المصرى الحديث لا يستطيع أن ينسَى فضل أخيك على التمثيل ، ممثلا أولا وكاتبا وممثِّلا بعد ذلك ، ثم كاتبا يكرِّس جهده للإنتاج للفن آخر الأمر ، يكتب فى اللغة العربية الفصحى ويكتب فى اللغة العربية العامية ، ولا يكاد يكتب ولا يكاد الناسُ يسمعون بعض ما يكتب حتى يصل إلى قلوبهم كما يصل الفاتح إلى المدينة التى يَقْهَرها فيستأثر بها الاستئثارَ كله

وأكاد أخشى عليك من كل هذا المجد ، وأكاد أُشْفِق عليك

من كل هــذا التراث الضخم الثقيل . فقد يُخَيَّـل إلى الذين لا يستقصون ولا يتعمقون الأشياء كما يفعل المجمعيون أنك فى هذا إنما حفظتَ ما أحْفَظك أو ما أورثك آباؤك وأخوك ، ولم تكد تجدِّد شيئا . فمن الجائز ألا يُستغرَب أن تكون نابغة ممتازا ، فقد أزهرتَ ونشأتَ وشببتَ فى أسرة نابغة ممتازة .

ولكن نحن الذين نؤثر التعمق والبحث لا نكاد ننظر إلى شىء يسيرٍ من آثارك الكثيرة حتى نستيقنَ أنك قد تفوقتَ على هذه الأسرة الممتازة كلها . أخذتَ خيرَ ما عندها ، وأضفتَ إليها ما لم تستطعْ هى أن تصل إليه .

شارك أبوكَ فى العلم وفى جمْعِ الآثار العلمية القيمة وقراءتها وتذوُّقها ، وهذه كلها من الخصال الكريمة الرائعة . ولكنك توافقنى على أن الذين يشاركون أباك فى هذا كثيرون فى شرق الأرض وغربها

وَسبَقَ أخوك إلى الإجادة فى التمثيل ، ولكنك توافقنى على أن الذين أجادوا فى التمثيل ليسوا قليلين .

وسبقتَ أنتَ إلى شىء لا أعرف أن أحدا شاركك فيه فى الشرق العربى كله إلى الآن ، وإذا ذهب أحدٌ مذهبَك أو جاء أحد فيما بعدُ بخير مما جئتَ به ، فلن يستطيع أن يتفوق عليك ، لأنك فتحتَ له الباب ، ومهدتَ له الطريق ، وَيسَّرْتَ له السعى ، وأتحتَ له أن ينتج وأن يمتاز وأن يتفوق .

هذا الذى تفوقت فيه وامتزتَ وسجَّلتَ به لنفسك خلودا فى تاريخ الأدب العربى لا سبيل إلى أن يُمْحَى ، هو القَصَص على مذهبه الحديث فى العالم الغربىّ .

ولستُ أدرى ما الذى كان بينك وبين القصص من هذا الحبّ الغريب ، فقد كنت فى صباك أولا مشغوفا بقراءته ، حريصاً على أن تُمْضِىَ بياض يومك وسواد ليلك فى « ألف ليلة وليلة » ، تكاد تُؤْثِر ذلك على الدرس المنظم الرسمىّ . ولم تكد تتعلم اللغة الأجنبية حتى التمستَ القَصَص فى هذه اللغة التى تعلمتها .

ثم لم تكد تبلغ من الثقافة حظًّا يتيح لك التوسُّع فى القراءة حتى أسرعتَ إلى الآداب القَصَصيَّة فى اللغات الأجنبيَّة على اختلافها . فقرأت القصص الفَرَنْسى ، وقرأت القصص الروسى ، وقرأت من القصص الألمانى والإنجليزى غير قليل . عشت للقصص ، وكاد القَصَص أن يعيش لك فى « مصر » ، وامتزجتَ بالقَصَص ، حتى كدتَ تُصبح قصة !

ومن الناس من يحب القِصص ويعكُف عليها وينفق عمره فيها ، يريد أن يأخذ منها ما يستطيع دون أن يقدِرَ على أن يردَّ بعض ما أخذ أو يعطِى بعض ما استعار .

ولكنك لم تكن من هؤلاء . لم تكن تحب القصص لتأخذَ فحسب ، وإنما كنت تحب القَصَص لتأخذ ثم تقلد ، ثم تلتمس

شخصيتك ، ثم تظفر بها ، ثم تنتج فتملأ والشرق والغرب أدبا وحكمة وفقهاً لشئون الحياة ، كأروع ما يكون الأدبُ والحكمةُ والفقهُ فى شئون الحياة .

فأدبك ليس مقصورا على « مصر » ، ولا هو مقصور على البلاد العربية وحدها ، ولكنه تجاوز حدود « مصر » ثم ضاقت به حدود البلاد العربية ، فعبر البحر إلى أقطار مختلفة من « أوربا » .

تُرجمت إلى الفرنسية والإنجليزية ، وأحسب أنك تُرجمت إلى اللغة الروسية أيضا .

فإذا قيل إنك أديب مصرى ففى ذلك غضٌ منك ، وإذا قيل إنك أديب عربىّ ففى ذلك تقصير فى ذاتك ، وإنك تُوفّى حقّك إذا قيل إنك أديب عالمى بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها وأعمقها

إنك حين قصدت إلى القصص ، أحببتَ أول ما أحببتَ هذا القصص العربى الشعبى اليسير الذى يتحدث عن القلوب وعن الطبائع وعن الأذواق المصفّاة فى غير مشقة ولا تكلف ولا عناء . هذا الأدب اليسير الذى تزدريه الخاصة المثقفة فى البلاد العربية وتهوى إليه قلوب العامة فتكوّن منه أذواقها وتكوّن منه شعورها .

وقد أحببتَ هذا الأدب كما تحبه العامة ، أخلصتَ له وأخلص لك ، وكدتَ تكون عاميا فى حبك له ، وكفاك به .

وليس هذا غريبا ، فإنك حين حاولتَ أن تكتب القصص ،

وتصبح منتجا بعد أن كنت مستهلكا ، كان التعبير على هذا المنهج العامى اليسير البسيط هو أول ما قصدتَ إليه ونجحت فيه.

فى أطوار حياتك الأدبية ما يعطى منك صورة القاص العربىّ الذى يصل إلى أعماق الحياة ويَفْقَه كُنْهَها ويستخلص صفوتها، يصوغ ذلك صياغة حسنة ، فإذا كَتَب قرأه العامى لأنه يلائم ذوقه وقلبه وطبعه ، وقرأه الرجل الخاص لأن فيه من الابتكار فى المعانى ما لا يجده فى كثير جدا من الأدب الخاصّ الممتاز .

ويظهر أنك حاولتَ أن تحتفظ بهذه النزعة الشعبية فى التعبير، فكان بينك وبين اللغة العربية الفُصْحى صراع شديد . كانت تريد أن تغلبك على أمرك وكنت تريد أن تقاومها ، وكانت اللغة العربية الفصحى تَنْسَلُّ إلى أسلوبك وألفاظك الخاصة بين حين وحين ، وإذا أدْبُك الشعبىُّ يأخذ قليلا قليلا مَسْحَةَ من روعة اللغة العربية الفصحى .

ولعلك تذكر ، وإنى أذَكّرك إن كنتَ قد نَسِيتَ ، حديثاً أَلْقَيْتَه فى بعض مؤتمرات المستشرقين ، وكدت تَخْلص فيه للدفاع عن اللغة العامية، وضقت أنا فى ذلك اليوم بهذا الدفاع . لم تكن تقدِّر أنك ستكون مجمعيا فى يوم من الأيام ، ولم تكن تقدر أن اللغة العربية أقوى منك كما كانت أقوى من كثير جدًّا لا من الأفراد بل من الشعوب ، ولم تكن تُقَدِّر أنك سَتُضْطَرّ فى يوم من

الأيام أن تكون من حماة هذه اللغة العربية الفصحى التى كنت تؤثر عليها اللغة العامية فى بعض أوقاتك .

ثم نرى تغلب هذه اللغة العربية عليك يزيد شيئا فشيئا ، وإذا هى تلتهمك التهاما ، وإذا هى تصوغك على ما تريد هى لا على ما كنت تريد أنت ، وإذا أنت لا تستطيع أن تكرهها إلا على شىء واحد ، هو خير ما تحب لها وهو خير ما تحب لنفسها ، تكرهها على أن تطيق من المعانى والخواطر والفنون الرائعة الأدبية الجديدة مالم تألفه من قبل . وإذا أنت من الممرنين لها أحسن تمرين ، تكلفها أن تصوغ مالم تتعود أن تصوغ ، وتؤدى بها معانى لم تكن تكلف تأديتها من قبل .

قرأت « حديث عيسى بن هشام » حين كنت صبيا فلم تتأثر به ، وأكبر الظن أنك لم تتأثر به لأنه كتب على منهج « الهمذانى » وأنك كنت تؤثر عليه قصص « ألف ليلة وليلة » .

وحين استأثرت بك اللغة العربية لم تفرض عليك أسلوب « عيسى بن هشام » ولم تفرض عليك أسلوب « الجاحظ » ولم تفرض عليك أسلوب القدماء ، وإنما كانت بينك وبينها هدنة اكتفت منك بأن تخضع لها ، وقبلت منك أن تفرض عليها أسلوبك الخاص .

لم تقبل ذلك منك عن ذلة أو ضعف أو استكانة ، وإنما قبلت ذلك منك لأنها واسعة الصدر ، سمحة النفس ، تؤثر أن تأخذ

أكثر مما تعطى ، وتتقبل ما يُهدى إليها ليضاعف من ثروتها ويمنحها الغنى والسعة ، وأنت قد أكسبتها بأسلوبك الجديد سَعَةً وقوة وقدرة ومرونة لم تكن لها من قبل .

وإنى أقرأ آثارك التى كتبتها باللغة العامية ، فأرتاح إليها أشدَّ الارتياح ، على رغم نفورى من اللغة العامية حين تُكتب ، وحتى لها حين يتكلمها الناس .

ثم أقرأ الآثارَ التى تكتبها باللغة العربية الفصحى ، فأُفتَنُ بها الفتنة كلها ، تفتننى معانيها التى كانت تفتننى حين كانت تلبس الثوب العامى المهلهل ، ويفتننى لفظها لسحره وروعته فى سهولة ويسر ، وفى غير تكلف ولا عنف ، وفى غير بحث عن ألفاظ غريبة ولا محاولة لتنميقها وترشيقها .

وأمرك غريب أيها الزميل العزيز . كنتَ تكتب العامية ، فكانت تأتى كأنما يتفجَّر بها ينبوع . ثم أخذتَ تكتب العربية الفصحى فكانت تأتى كأنما يتدفق بها نهر ضخم . فأنت رائع حين تكتب فى العامية ، وأنت رائع حين تكتب فى اللغة العربية .

والحمد لله على أن اللغة العربية قد استأثرتْ بك لا استئثاركله ، فقد كنت عدواً لها عنيفا ، تحبِّب العامية حين كنا نريد أن نبغِّضها إلى الناس ، فانتصرت اللغة العربية عليك انتصاراً رائعا لا شك فيه .

وأنت كاتب حلو النفس ، عذب الروح ، خفيف الظل ،

لا تَشْقُل على قرائك مهما يطيلوا عشرتك .

وأذكر أنى تلقيت ذات مرة فى باريس (سَلْوَى فى مهبّ الريح) فترددتُ فى قراءتها ، وآثرتُ أن أقرأ ما كنتُ أقرأ فيه من الأدب الفرنسىّ على اختلافه ، ولا سِيَّما حين أكون فى « فرنسا » ولكننى لا أستطيع أن أردّ نفسى عن قراءة آثارك ، فأخذتُ نفسى بأن أقرأ من كتابك هذا صُحُفاً بين حين وحين ، على ألا يصرفنى عما أنا فيه من قراءة فى الأدب الفرنسى . وأُقْسِمُ ما بدأتُه حتى أعرضتُ عن كل ما أنا فيه ، ومضيت فى قراءته . حتى أتممت كتابك على طوله ، ولم أقطع القراءة إلا حين لم يكن مِنْ قطعها بُدّ .

وهذا شأن غيرها من القصص الذى تكتبه باللغة العربية . يأتى هذا كله من أنك دقيق فى التصوير ، ومن أنك متعمِّق لحقائق الأشياء دون أن يظهر تعمُّقُك للقرّاء ، ودون أن تقول للقارئ : انظر ألا ترى أنى قد بحثتُ فأحسنتُ البحث ، واستقصيتُ فأحسنتُ الاستقصاء ، ودون أن تصنع صنيع « البُحْتُرِىّ » حين كان ينشد بعض قصائده ، فإذا رأى من « المتوكل » وممن حوله شيئا من الفتور سأل : مالكم لا تَعْجَبُون ؟ وما لكم لا تصفقون ؟

وفيك بعد هذا كله دُعابة حلوة ، لا يكاد الإنسان يبلغها حتى يقف عندها ، ثم يمضى فى قراءتها ، ولكنه لا ينسَى هذه الدعابة . دعابة فى اللفظ ، ودعابة فى التصوير ، ودعابة فى التفكير أيضا .

وقد كنتُ أقرأ منذ أيام قصة « شفاه غليظة » وكم كنت أحبّ أن تسميها « الشفاه الغلاظ » فوقفتُ عند تصويرك لشفتى تلك الفتاة . شفتان غليظتان لاتريدان أن تلتقيا كأن بينهما خصاما ، الشفة العليا لاتريد أن تنحدر أو أن تهبط لتمس الشفة السفلى كأن بها كبرياء ، ولكن الشيء الذى استهوى بَطَلَك فى هذه القصة وملك عليه قلبه ولبه وفؤاده كله ، هو شيء فى إحدى هاتين الشفتين ، فتوء ضئيل جداً فى وسط الشفة لا ينفرج ولا يتسع ولا يتيح لهذه الشفة أن تستوىَ إلا حين تضحك الفتاة أو تبكى أو تأخذها ثورة من ثورات العاطفة .

هذا النُّتُوء اليسير كان مَدار قصتك كلها من أولها إلى آخرها ، شيء يسير جداً فى شفة فتاة من الفتيات ، رآها محام فَفُتِنَ بها وهام بها الهُيامَ كله ، وأقام عليها حياة أخصُّ ما توصف به أنها حياة رجل ذكى عَبِثَتْ به فتاة ، فاستغفلته مرتين أو مرات .

وكذلك أنتَ فى كثير جداً من قَصَصك ، أوفى كل قصصك ، تتخير أو تستكشف شيئاً يسيراً وتجعله مَداراً للقصة تعود إليه ، كأنه لَحْن من هذه الألحان اليسيرة التى يَبْنِى الموسيقىّ عليها قطعته . فأنت تتخذ فى قَصَصك فكرة أوصورة أو خاطرة دقيقة يسيرة تدور عليها قصتك ، فتستهوى وَتخْلُب وتستَلِب القلوب . كُتُبُكَ ليست قليلة ، وأحسبها قد بلغتْ الثلاثين أو

جاوَزْتَها، تُرْجِمَ منها الكثير وسيترجم منها أكثر مما تُرْجِم. ولا أكاد أعتقد أن كاتباً مصرياً مهما يكن شأنه قد وصل إلى الجماهير المثقفة وغير المثقفة كما وصلتَ أنتَ إليها. فأنتَ شديد الانتشار، لاتكاد تكتب الكتاب حتى يتهافتَ عليه القارئون فى البلاد العربية كلها.

أتظن بعد هذا أنك لم تتفوق على أُسْرَتك، ولم تُضِفْ إلى تراثها العظيم؟ أتظنُّ بعد هذا أنك مَدِين بمكانتك الأدبية لهذه الأسرة الأدبية النابغة؟ أليس الحقّ أنك أخذتَ عنها كثيراً، وأضفتَ إليها كثيراً؟

ثم أنفهم الآن لماذا سَعَى إليك المجمعُ سعياً رفيقاً كما يسعَى إلى شىء ذى خطر لا يسهُل الوصول إليه؟ سعَى إليك سَعْيَ الحَيَّة فيما يقول «عمر بن أبى ربيعة»، سَعَى فقدَّر آدابك العربية وأجازها ونَوَّهَ بها، ثم استَأنَى بك لأنه يعرف تواضعَك وهدوءك، ويعرف ماطُبِعْتَ عليه من حبّ العزلة والانزواء، استأنَى بك حتى تُسِيغ هذا التقدير وحتى تطمئن إليه. استأنَى بك سنة أو سنتين، فلما عَرَفَ أنك تلقيت هذه الصدمة وصَبَرْتَ لها واحتملتها ثم تعزيت عنها، فسافرتَ وأقمتَ وقرأتَ وأنتجتَ، هجم هجمته الكبرى وأخذك على غِرَّة. وأشهد ماعَرفْتَ أنت ولا أحسستَ قط بأن المجمعَ يريد أن يضمك إليه، وإنما أخذك المجمعُ فجأة فى ذات يوم فى جلسة من الجلسات. ائتمر بك صديقان لك

هما «أحمد أمين» و «طه حسين» فرشحاك للمجمع ولم يكادا يعرضان ترشيحهما حتى أجمع هذا المجمع على اختيارك، وإذا أنت قد التهمك المجمع التهاماً كما التهمتك اللغة العربية الفصحى التهاما من قبل.

كنتَ مدافعاً عن اللغة العربية الفصحى بما تكتب وما تنتج من آثار، لا تكاد تزيد على ذلك. وحسبُك بهذا دفاعا عنها وصيانة لها. ولكن المجمع يقول لك منذ الآن ألاّ تكتفي بالإنتاج الأدبي، بل تضيف إلى هذا الإنتاج الأدبي مشاركة في هذا العناء المتواضع الذي يشقى به المجمع مرة في كل أسبوع، وعسى أن يشقى به أكثر من مرة. فاصبِرْ نفسك على الصدمة الثانية كما صبرتها على الصدمة الأولى، واطمئنّ إلى أن المجمع لا يملك أن يروعك بعد ذلك، فقد انتهى من أمرك.

ولكن لا تطمئن ياسيدي، فإن الدنيا لا تشتمل على المجمع وحده، وإن الذين ينتجون مثل ما تنتج، ويسيرون في الحياة الأدبية والعقلية مثل ما تسير، مضطرّون إلى أن يصبروا للأحداث، وأحداث المجد الأدبي خاصة، وهذه الأحداث أظن بل أصدق بأنك تعرف أثقالها، وتعرف كيف تحتمل هذه الأثقال.

الفنان في صورة ملك

يختلف الفنان عن سواد الناس بأن فيه عبقرية ترفعه عن المستوى المألوف ، وتدفعه إلى مزاولة ما بين يديه من العمل ، على نحو تتجلّى فيه الروعة والطرافة والإبداع .

ولسنا نقصد بالفنان من يَهْوَى فنا من الفنون الجميلة أو يمارسه ، وإنما نقصد ذلك الذى وهبه الله تلك القوة الممتازة ، تلك العبقرية الفنية ، فأسبغت عليه تلك الصبغة الخاصة فيما يمارس من الأعمال أيًّا كان اللون الذى تَتَسِم به . . .

وإنك إذا عرضتَ مواكب التاريخ فى ركب العصور ، تراءت لك شخصيات من الملوك والوزراء والحكام ، تولوا أقدار الدول ومصاير الشعوب ، فإذا توسمت هذه الشخصيات ، وتفحصتَ ما جرى على يديها من جِسام الأحداث ، تسنَّى لك أن تميّز فيها بين الشخصيات المألوفة والشخصيات التى أوتيت عبقرية الفن ، فاتَّسمت أعمالها وتصرفاتها بروعة وطرافة وإبداع . . .

ولقد تجلت فى البيت العلوىّ تلك العبقرية الفنية فى مظهر وضّاح ، وكان رأسها « محمد على الكبير » فنّاناً تمثّل فنّه فى عبقرية الخَلق والإنشاء ، فهو باعث أمة ، ومنشىء دولة .

وجاء ابنه « إبرهيم » يمثّل فنّه عبقريةَ الفتح والغزو ، طامحاً أن يجعل من « مصر » إمبراطورية واسعة النطاق ...

ثم كان « إسماعيل » فناناً عبقرياً فى التجديد والتحضّر ، محاولا أن يجعل وطنه قطعة من بلاد المدنية والعمران ..

ثم شهدنا « فؤادا » فإذا بعبقريته تنحو نحو النهوض والتعمير ، وقد كان عهده عهد الوثبات البعيدة فى شتى المرافق ومناحى الاجتماع ...

وهانحن أولاء نشهد عصر « الفاروق » فإذا بنا نرى الفنّان فى صورة ملك ، الفنان فى أروع مظاهره ، فقد استوعبتْ عبقريته ألواناً وشُكولا من عبقريات بيته العلوىّ . ولعلّ أوضح سِمَةٍ لعبقرية « الفاروق » أنها ذات صيغة إنسانية مجلوّة ...

تتوضح إنسانية « الفاروق » فى شتى أعماله ومساعيه ، وليست ديمقراطيته التى أصبحت مضرب المثل إلا أول آية من آيات إنسانيته الرائعة ...

وإن الشمس لتشرق كل يوم ، فيطالعها عمل جديد من أعمال « الفاروق » ، أو مسعى من مساعيه يهدف به إلى إسعاد شعبه ، على أسلوب جديد رائع ، أسلوب الفنان فى أوج عبقريته ، يهزّ بصنيعه النفوس هزا ، ويدفعها إلى الاستجابة دفعاً ...

لا يجرى « الفاروق » فى مزاولة مهامّ المُلْك على الأسلوب التقليدىّ الشائع ، وإنما هو يعطى من عظمة روحه ومن زهرة شبابه ما يجعل الملك بين يديه فناً رفيعا يتجلّى فيه وحى العبقرىّ وإلهام الفنان ! .

وطبيعىّ أن يكون قلب الفنان عَطوفا على كل اللوامع الفنية فى وطنه ، حريصاً على أن تحيط به من كل جانب ، ومن ثمّ نرى « الفاروق » العظيم لا يكاد يلمح قبسا من أقباس الفن فى الأفكار والأعمـــال والأشخاص ، إلا أفاض عليه ضروبا من الرعاية والعون والتشريف .

ولقد شهد ناعصر « الفاروق » تسطَع فى سمائه نجوم فى السياسة والرياضة والعلوم والآداب وشتى ألوان الفنون الجميلة ، فكان لألمعية الملك الفنان كبير الفضل فى أن تتجلىّ هذه النجوم ، لا تحجبها العوائق ، وأن تتبوأ فى آفاق الحياة الاجتماعية منازلها ترسل منها

سواطع الأضواء . وإذا كانت الأفلاك فى سمائها تدور بجاذبية شاملة ، لا يتخلف بها كوكب عن مداره ، ولا يبطىء بها نجم عن تَسْياره ، فإن شخصية « الفاروق » فى عصره تمثل هذه الجاذبية فى المجتمع المصرىّ ، وإنها لقوة تؤلف بين تيارات النشاط الفكرىّ والاقتصادى والاجتماعى ، وتبعث فيها جميعا روح النهوض والتوثب نحو المثل العليا والأهداف الجسام .

أبو الهول يناجي القاهرة

(رسالة يبعث بها « أبو الهول »
إلى مدينة « القاهرة » يبثها فيها
بعض ما يتناجى فى صدره .)

صديقتى « القاهرة » :

هذه رسالة أناجيكِ بها ، وإنها لأول رسالة أفضى بها إلى كائن كان ، منذ عهد عهيد . . .

رسالة أكتبها إليكِ بلغتى الأصيلة ، لغة الرسوم والنقوش ، فعلى الرغم مما وعاه صدرى من مختلف اللغات بعيدها وقريبها ، ومن شتى اللهجات مأنوسها ومجفوّها ، مازالت « الهيروغليفية » أثيرة عندى ، لا تفضلها لغة سواها .

ومردّ هذا الإيثار « للهيروغليفية » أنها اللغة التى نزلت من لسانى منزلة الفطرة والسليقة ، فأصبحتُ موصولا بها ، وأصبحتْ هى موصولة بى ، فنحن صِنْوان لا يفترقان .

وأكبر ما أخشاه أن أصطنع لغـة مستحدثة ، وأن أدير على لسانى لهجة غير لهجتى فأفقد سلامة المنطق ، ولا تستقيم لى قدرة على التعبير الصحيح .

على أن اللغة « الهيروغليفية » تتميز بما فى رسومها من جمال ، وما فى نقوشها من طلاوة ، وذلك كله خليق أن يغرينى بالاحتفاظ بها على تطاول العهد ، وتقادُم الزمن .

ما أروعها من لغة !

إنك إذ تُقلبين النظر فى حروفها ، وتتصفّحين ماحوت من رسوم ونقوش ، فكأنك تجوسين خلال مُتْحَفٍ زَخَرَتْ أبهاؤه وقاعاته بما سجلناه على جبين الأيام من فن جميل ..

ولعلى حين أناجيكِ بهذه الرسالة أميط اللثام عن حقيقة ما أشاعوه عنى ، إذ رمونى بالصمت المطبِق ، بل جعلونى رمزاً للعِىّ ، ومثلا للبَكَم ، فكأنى عندهم لا أزيد على صخرة خرساء !

حقاً لقد زَمَّتْ شفتىّ منذ دالتْ دولة هذه اللغة «الهيروغليفية» التالدة ، فلم أنطق بحرف . ويشهد الزمن أنى ما رضيتُ بحظى هذا من السكوت ، فأنا أضيَقُ ما أكون صدراً بحُبْسَةِ اللسان ، وشدّ ما تشوّفت إلى جليس يتحدث إلىّ بلغتى ، فأجاذبه أطراف

الكلام ، وأروى ظمأ فضوله فيما يريد أن يسألنى عنه من مكنون الأحداث .

فهل وَفَدَ علىّ سائل يتحدث إلىّ بلغتى ، فرددتُه كسيرَ الخاطر ، كاسف البال ؟

فِيمَ إذن هذه الفرية التى يزوِّرونها علىّ ، فِرية العِىِّ والانغلاق ؟

كثيراً ما هممت بأن أحل عقدة ذلك اللسان الحبيس الذى ضقت بصمته ، وكثيراً ما لمع فى خاطرى أن أطلق الصوت عالياً مدوِّياً فى تلك الرحاب الفساح من حولى ، لأخفف عنى ما أعانيه من وحشة وحرج ، ولكن أين من يتبين فى صيحاتى ما أريد الإفصاح عنه ؟ أين من يصغى إلىّ ، ويفهم عنى ؟

لكأنى بمن يسمعوننى وقد ولوا فراراً منى ، أو هزُّوا رءوسهم سخرية بى ، يظنون أن رأسى قد خرب ، فراحت تَصْفِر فيه الرياح !

وهأنذا أخيراً أشعر بأنى فى حاجة إلى أن أناجيك .. أناجيك أنت أيتها الصديقة التى جاورتِنى منذ أربعة عشر قرناً ، فأهديتِ إلىّ أنساً وطمأنينة ، بعد أن قضيت سوالف القرون وأنا فى تفرد وعزلة ، تقف من ورائى هذه الأهرام الثلاثة ، أو بالأحرى هؤلاء

الأحراس الأيقاظ ، مشرئبِّين متشامخين كأنهم زبانية يعدُّون علىّ الأنفاس !

ثمة عاطفة توثقت وتأصلت ، ولم أعد أطيق لها كتماً . . .

عاطفة تهزنى إليك ، وتصلنى بك ، وأنا فى مكانى لا أستطيع منه البَراحَ . . . .

لقد آن لى أن أتنفس ، وأن أجلو لك دخيلة نفسى . . .

إن « أبا الهول » اليوم ليتكلم . . . ولكنه لا ينطلق له صوت.

إنه يبوح لكِ بمكنون سره سطوراً وكلمات .

هذه رسالته إليكِ أنتِ وحدك . . .

ربما خدعكِ مظهرى ، فخيل إليك أنى كما أنا صخر مُصْمَت ، جماد يحيا فى كهوف الرمال ، طوى الأحقاب فى معتزله كما يطوى الناسك عيشه ، صائم الدهر ، حليفَ الصمت ، يسبح فى غيبوبة ليس لها مُنْتَهىً . . .

هل خطر ببالك أن لهذا الجماد قلباً ؟

قلباً كسائر القلوب الحية . . .

قلباً يسعَد ويشقى . . .

قلباً يتعاوره الأمل واليأس . . .

قلباً تتداوله ألوان المشاعر والأحاسيس ..

آن لهذا القلب أن يعبر عما يجيش فيه !

آن له أن يُذيع هوى لك طالما كتمه فى الأعماق ...

لا يُسْرِعَنَّ بكِ الاستخفافُ إلى الابتسام ...

أشفقى على محب عفيفِ الهوى ، صان لك حبه طوال من العصور والآماد ...

لست أغْفَلُ عما بيننا من فروق ...

أين أنا منك ؟

أين ذلك الناسك المتقشف تكسوه سافيات الرياح ، من عروس وضاحة الجبين ، تحُفّ بها مجالى الحياة والبشر والنور ؟

أين أنا منك ؟

أين ذلك الجماد المكسور الأنف ، القابع فى ألفاف الركود والخمود ، من تلك الزهرة النامية ، المتطلعة بأنفها الأشمّ إلى موصول التجدّد والازدهار ؟

يا لله !

ما أشدَّ شغفى بك !

قَسَماً إن حياتى كانت قبل أن أراك هباء ، فإذا أنت

تَبْزُغين قبالتى ، فتملئين علىّ دنياى من بهجة وإيناس . . .

أنسى ولا أنسى يوم حل ذلك العربىّ النبيل بهذا الوادى ، وما هو إلا أن خرج بك من فسطاطه ملفوفة فى شَملته البدوية ، فسوّى لك على شاطئ النيل مهدك الأول ، مهدا من سُندس خُضْر ، تظلله بواسق النخيل ، وتهدهده عرائس النسيم ، وتشدو له راقصات الطير بأعذب الأهازيج . . .

يابنة الفسطاط :

فى ذلك اليوم الميمون ، يوم مولدك الكريم ، فتحتُ عينى الظامئة الكابية ، فالتقت بعينك الريّانة اللامعة ، فأحسستُ أول ما أحسستُ أن بين جنبى قلبا ، وأن هذا القلب نابض خفاق ...

لم أكن أعرف لقلبى هذا من وجود ، قبل أن تكتحل بمرآك عين الوجود . . .

لكأنك تقولين :

ألم تكن « منفيس » عن كثَب منك ، فى جنوب الوادى ؟

أوَلم تكن كذلك « عين شمس » بمقربة منك فى الشمال ؟

كانتا هنالك حقاً يابنة الفسطاط .. وعاشتا دانيتين منى لاريب . ولكنى لم أشهد لهما ظلا ، ولم أحس لهما حياة ...

أما أنت فقد رأيتك أمامى تتخلقين وتترعرعين ، فكنتُ كأنما أنا الذى أتعهد تنشئتك ، وأرعى تنميتك ...

أنت ابنتى طفلة ...

وأنت ربيبتى صبية ..

وأنت صفيتى فتيّة مكتملة النضج والتفتح ...

يتمثل فى ظنى أنك تهمسين قائلة لى :

إننى غريبة عنك ، حملنى « ابنُ العاص » معه غَرْسَةً من البادية ، فأنبتها على ضفة النهر المبارك الغدوات والروحات .

لله ما أجملك من غريبة مأنوسة !

كان لزاما على ذلك الوادى أن يستقبل غرسا غريبا عنه ... نباتا جديدا فتىّ الروح !

لقد ران الخمول على تربة هذا الوادى ، دهورا متلاحقة ، فقضى حياة رانية خاملة ، فما إن برزتِ فى أفق حياته كالكوكب المتألق ، حتى شعرنا بهذا الوادى ينتعش ويتجدد .

منذ هبطتِ هذه الرقعة من أرضه ، سرتْ فيه سارية من النور ، تهديه طريق التحضر ، وتزفّ إليه طريفا من العظمة والمجد .

لله ما أعجبك من غريبةٍ أَلُوف !

لم يكد يستقر بك المقام على هذه الأرض ، ترتوين من رحيق نبعه ، وتتنفسين فى رحيب أجوائه ، وتغتذين من تليد زاده ، حتى زالت عنك الغربة ، وما أسرع أن اندمج الوادى فيك ، واندمجتِ فيه . . .

لقد تم بينكما تآلف وتزاوج ، فتجلت على الوادى تلك الشخصية المتميزة ، متوثبةً أبداً إلى مشارق الأمجاد .

فيا بنة الفسطاط :

كيف لا أهيم بك حباً ؟

أنتِ دَوْماً مطمح البصر ، إليك أرنو ولا أَمَلّ . . .

قاسمتُك مامرّ بك من أحداث ، ويالها من أحداث !

لقد تعاقبت عليك الأيام بالسعود والنحوس ، وتداولتك الأقدار بين إقبال وإدبار ، ولكنك ظَلِلْتِ عندى كما أنتِ أثيرة حبيبة ، لايلحَق صفاءَ حبي لك شَوْب !

لبثتِ رَدَحاً من الزمن صبية عربية فى فُسْطَاطك البدوىّ ، تحاولين جهد المستطاع أن تحتفظى بذلك المظهر الساذَج ، فإذا بك قد وفد عليك ، جوهر الصقلىّ ، يهدى إليك كنوز المغرب ، ويتودّد إليك بألوان من الترف كانت قصارى مابلغه الفاطميون

من ثروة وغنىً ، فأصبحتِ بحق « قاهرةَ » القلوب ، وما أنت إلا قاهرتى أنا . . . قاهرةُ « أبى الهول » !

ما أفتنك وما أبهاك من قاهرة !

فى هذا العهد الفاطمىّ الألاّق ، زانك ذلك الزىّ المُترَف ، حافلاً بالنفيس من الحلىّ ، والفاخر من الحُلَل ، فازدانت بك محافل الأعياد والمواسم درة باهرة السنا ، تَهْوِى إليها أفئدة الناس من كل فجّ وصَوْب . . .

على أنك بعقلك الكبير سموتِ فوق لهو الغوانى ، ودلال الحسان ، فكنتِ راعيةً للعلم ، أمينةً على الدين . فى أفقك الصحو تعالت مئذنة « الأزهر » العتيد تعلنُ كلمة الله ، وفى رحابك الخصبة انتثرت معاهد الدرس والبحث ، وعلى أبوابك العامرة احتشدت الوفود تلتمس عندك الخير ، وتطلب الزُّلْفَى .

ثم تواردت الأيام . .

وإذا أنتِ فى صحبة ذلك « الأيوبى » الأبىّ . . . تلبسين دروع الحرب ، وتعبِّئين كتائب الشجعان ، ثم تخوضين الغمرات يخفق فوق رأسك لواء النصر والغَلَب . .

ودارت بك دورة الأيام . . .

وإذا أنت بعد النعمى فى بؤس، وبعد العزة فى هوان ..

يالتلك الأيام الصعاب !

كنتُ أحسّ أنا الصخرة العاتية التى ثبتتْ على الدهر، كأنى أذوب وأتحلل من فرط التحسر والأسى . . .

ومن أين لى صبر، وأنا أراك تحت سطوة ذلك « المملوك » الجبار، ينظر إليك نِظْرَة النَّمِر المفترس، ويلهب جسدك العزيز بالسياط ؟

ولكنك كنت كريمة فى عهد هوانك وانكسارك، كما كنت كريمة فى أيام إقبالك واعتزازك . . .

وراء الغلائل من دمعك الهَتُون، كانت تتراءى بسمتُك الأصيلة النبيلة، يتجلى فيها الأمل الحلو، والإيمان المكين .

ودالت دولة هذا الطاغية العَسُوف . . .

دالت دولة العبودية والإذلال . . .

وخرجتِ من بُوتَقَةِ المحن والأرزاء، صافية الجوهر، فكنت الظافرة القاهرة .

وكيف لا تكونين كذلك، وقد قيّض الله لك ذلك الشهم الغيور، ذلك العبقرى الفذ، ابن « قَوَلَه » ؟

لكأنى به وهو فى مَسْقِط رأسه البعيد ، يجلس الساعات الطوال ، رانياً إليك ، يخترق بنظره الثاقب سجوف الزمن ، ويغالب أمواج البحر ، فيراك فى محنتك تعانين الشقوة والبأساء ، ويستمع إلى ندائك اللاهف المستصرخ ، فلا يملك إلا أن يهبَّ إليك واثباً وثبته الكبرى ، هاتفاً من أعماق قلبه :

لبيكِ . . . لبيكِ !

إنى لأتمثله الساعة ، وقد هبط عليكِ ، باسطاً ذراعيه إليك ، فترامیتِ فى أحضانه واجفة القلب ، فياضة الحنين ، وكان بينكما هذا العناق الذى لم يكن بعده فراق !

لقد ذاب فيك ، وذبت فيه ، فغدوتما كائناً فرداً لا يتجزّأ . . .

وهل يذكر « القاهرة » ذاكر دون أن يسرع إلى خاطره طيف « محمد على » ؟

أليس هو حتى اليوم محلِّقاً بروحه العظيم حول قلعته ، يشرف عليك من عَلٍ ، يتعهدك ويرعاك ؟

أوليس هو حتى اليوم متمثلاً بهمته الوثابة ، وعظمته الخلاّقة ، فى دم حفيده « الفاروق » الجالس على العرش ، يجدد نهضة الوطن ، ويبعث قواه إلى الأمام ؟

ياقاهرتى العزيزة :

أنتِ اليومَ كعبة ذلك الشرق المنبعث لاستعادة حقه فى مكانة الصدر بين الأمم . . .

ت اليوم قلب الشرق النابض ، لسانه المفصح ، عقله اليقظ ، ضميره الحىّ ، جبهته الأبية . . أمله المنشود !

أنت على الرغم من كل شىء قاهرة . . .

وستظلين مابقى الدهر ، وأنتِ « القاهرة » !

صديقك

« أبو الهول »

(عن رسوم ونقوش هيروغليفية — وفق الأصل !)

أحمد لطفى السيد

ليس من المتعذر على كائنٍ كان أن يرسم صورة واضحة الملامح والقسمات «للطفى السيد»، دون أن يجالسه، بل دون أن تقع عينه على رسمه...

فالرجل يحيا فى دنيانا هذه، لا بجسده وشياته، بل بفكره وعقله...

متى استوعبتَ آراءه وتأملاته، تمثلتْ لك على الفور صورتُه واضحة تمام الوضوح...

إنه فكرة أكثر منه جسدا، وعقل أكثر منه مادة، وقوة تُحَسّ أكثر منه خَلْقاً يُلْمَس...

إنه أدنى شبها إلى الخط المستقيم الذى هو أقرب بُعْدٍ بين نقطتين، ولكنه ليس بالخط السطحىّ، يجرى به المداد على القرطاس...

هو خط متغلغل يصل إلى أعمق الأغوار من الفكر الإنسانيّ الأصيل . . .

خط مستقيم لا غير . . .

خط سريع الحركة ، يندفع من نقطة البدء إلى نقطة الانتهاء ، كتيّار النور ، شديد التألق ؛ يبلغ الهدف ، كالقذيفة الصائبة !

إذا لمحتَ هذا الخط يَرِفّ فى سمـــاء الفكر ، أغناك عن خطوط كثيرة أُخَر ، تمتدّ حينا ، وتتعرّج حينا ، وتلتفّ هنا وهنالك ، يحسب الغافل أن فى امتدادها والتوائها وتذاؤبها سرّ عظمتها ، ولكنه فى الحق لا يصيب منها غير إخفاق التجربة ، وضَيعة الوقت ، وسوء المصير .

إنه كلمة واحدة . . .

لفظ غنيّ ، يزخر بكبار المعانى ، فيه غَنَاء عن مقال ومقال . . .

إن رسالة البعث للشرق وتجديد شبابه ، تلك التى هبط بها « الأفغانيّ » ، ونفخ فى روحها « محمد عبده » ، قد انتهت إلى يد « لطفى السيد » ، فحمل شعلتها ، وظل يُذْكيها ، ويتخطى بها أشواك العقبات والعراقيل . . .

وما برحتْ هذه الرسالة حتى اليوم فى يده ، ومن حوله جيل

هو صاحب توجيهه فى النهوض والمضىّ إلى الأمام ...

لقد تسلم « لطفى السيد » المِشْعَل ، يوم كان وَقُوده الزيت ، فلما وجد الزيت غير صالح استبدل به « البترول » ، ونحن نراه اليوم يستبدل بالبترول قوة كهربية ، وكأننا نراه يفكر فى أن يزوّد مشعله بطاقة الذرّة إن كان لها أن تُنير !

وتلك هى الأمانة الكبرى التى تُناط بِحَمَلة المشاعل فى الأمم النواهض ...

واجبهم مسايرةُ الزمن ، وملاءمة التطور ، والعون على التقدم والسبق ، دون اكتراث بمثبطات التزمّت والجمود ...

نادى « لطفى السيد » بالوطنية المصرية ، يوم كانت الوطنية فى أوج حَمِيَّتها لا تعرف غير الوطنية العثمانية ، فكان الخفقة الأولى فى ذلك القلب المصرىّ الذى ينشد مكانه بين الوطنيات الخالصة ...

أدرك هذا الرجل ببصيرته العبقرية أن الإمبراطورية العثمانية إلى زوال ، فكأنما أزاح الستار عن طوايا الغيب ، فتبيّن له أن هذه الإمبراطورية ليست فى ضخامتها إلا وَرَما يوشك أن يتراخى ويضمحل ، وأنه لا خير « لمصر » إلا فى أن تعوّل على نفسها ، لإيقاظ وعيها القومىّ ، ودَعْم استقلالها الوطنىّ .

ولم يلبث الغد أن كشف عن وجهه ، فإذا هو مِصْداق ما بَشَّر به « لطفى السيد » بالأمس ، فكانت فكرته نواة الثورة المصرية التى آتت أُكُلَهَا فيما بعد ...

واليوم وقد استتبّت فكرة القومية المصرية ، ورسخت جذورها ، وتسامقت فروعها ، وجد « لطفى السيد » عالم الحضارة يتطلع إلى تآلف وتآزر واتحاد ، فألفيناه يتمثل هذه الفكرة ، ويعبر عنها فى تأييده « للجامعة العربية » على أساس أنها صلة بين أمم : « اتسعت بينها دائرة المشابهات ، وضاقت دائرة الفروق » !

ليس « للطفى السيد » كتاب من تأليفه ، شأنه فى ذلك شأن سالِفَيْه : « الأفغانى » و « محمد عبده » ...

كل ما لهم أفكار ومبادىء وآراء يبسطونها حينا فى توجيه أو إيحاء أو عمل ، ويرسلونها حينا فى حديث أو خطبة أو مقال ، وإن قومهم ليلتقطون ذلك كله فيجمعونه ، كما يلتقط الحواريون والتلاميذ والشيعة ما تتمخض عنه عبقريات القدّيسين والفلاسفة وقادة الأمم ...

إن هؤلاء القدّيسين والفلاسفة والقادة لا يفرُغون عادة لتأليف وتدبيج ... حياتهم كتاب يمتدّ ويتجدّد وينمو ، وأيامهم

صفحات مسطورة ناطقة تتملاّها الأعين ، وتستملى منها الآذان ، وتهفو إليها القلوب !

أكبر ما يتميّز به « لطفى السيد » عقليته الإنسانية ، تلك العقلية الحرة الطليقة التى لا تحدّها قيود وأسوار ، فهى بما لها من أجنحة خفاقة لا تعجز عن التحليق فى شتى الآفاق ...

ولعل ذلك سرّ ما نراه من ألفته للفلسفة الإغريقية ، وبخاصة صُحبته الأصيلة « لأرسطو » المعلم الأول ، الذى كان مناط فلسفته هو « الإنسان » فى أوسع زمان وأرحب مكان !

ليس بِدْعاً أن يكون « لطفى السيد » كصاحبه « أرسطو » مأخوذا بالطابع المنطقىّ الذى هو التناسق والتوافق على أساس من سلامة المقدمات وصحة النتائج .

ترَى ذلك واضحا فى فكره وقوله ومسلكه ، فى هيئته وشارته ، حتى إن لَبُوسه ليكتسى بذلك الطابع ، فأنت تشهده أنيقا ، ولكنك تشعر بأن أناقته من نوع خاص ، لعل أصدق وصف لها أنها « أناقة منطقية » ...

بَذِيقة مُنَشَّاة ، ورباط رقبة منتظم العقدة ، وحُلة كأنما صبّ فيها قوامه صبّا محكما يكشف لك عن رشاقة نبيلة .

وما حديث « لطفى السيد » إلا مظهر آخر من المنطق المتزن ، فى غير غلظة ولا جفاء . .

يخيّل إليك، وأنت إليه مستمعٌ، أن الكلمة لا تنفرج عنها شفتاه إلا بعد أن تجوز فى مخيلته بأدوار وأطوار لا تقل فى نظرى عن أطوار الجنين التى يجتازها حتى يتخلّق بشرا سَوِيّا ، فهو لا يتفوه بالكلمة إلا محكمة مكتملة النمو، ولا يلقى بها إلا فى موضعها الذى ينتظرها لتملأه

لذلك تميّز حديثه بالأناة والاقتضاب ، وإننا لنراه يستعين بلفائفه يشعلها واحدة إثر الأخرى ، متخذا منها فُرَصَ رَوِيّة ، ومُهْلَةَ تأمّل ، حتى لا يضجر السامع بما يكون من فترات الصمت . .

وخليق بجليس « لطفى السيد » أن يضجَرَ بصمته ، إذ يفوته بهذا الصمت أن يستمتع بما لحديث ذلك الفيلسوف من روعة وسحر.

وإن الحكمة القديمة تقول :

« إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب »

ولكن من يجلس إلى « لطفى السيد » مستمعا إليه ، يشعر دائما بأنه إذا كان السكوت من فضة فالكلام من ذهب !

عبد العزيز فهمى

كان شأنى مع « عبدالعزيز فهمى باشا » هو شأن كل امرئ مع الكبراء الذين يملأون الدنيا ويشغلون الناس ، هؤلاء الذين تتناثر أنباء بطولتهم على الأسماع ، وتتعطّر بأحاديثهم الأندية والمجالس ، وتتجلى صورهم فى الصحف مختلفة الأوضاع . فإن تاح لك أن تراهم ، لمحتهم عَبْراً فى سيارة ، أو خطفاً فى مجتمع . . . وإنّ صورتهم التى تتمثل فى الأذهان لصورة أقرب إلى صور الأطياف ذوات الهالات من نَسْج الخيال !

ظلت علاقتى « بعبدالعزيز فهمى » لا تتجاوز هذا المدى . أعلم أنه أحد ثلاثة كانوا هم طليعة الوثبة الوطنية للمطالبة بحق الأمة المغتصَب ، وتتناهى إلىّ تلك الأحاديث النادرة التى تصف مواقفه الرائعة الجبارة فى السياسة والتشريع والقضاء . . .

وأول مرة اجتليتُ فيها صورة الرجل عن كثَب ، كانت بدار المجمع اللغوى ، فى زيارة لتلك الدار . . .

لمحتُه على أريكةٍ يجلس جِلْسة تتوضح فيها الوداعة البالغة ، متراخى الأوصال ، قليلا على الأريكة شخصُه الضئيل . . .

فاسترعى نظرى منه طول إطراقه ، وقد أزاح طربوشه إلى الوراء ، كأنما يفسح لأفكاره مجال الانطلاق . . .

فناجيت نفسى :

أهذا صاحب مشروع الحروف اللاتينية للكتابة العربية . . ذلك المشروع الذى انبعث من المجمع قَذِيفَةً اهتاج لها رجال الفكر فى أرجاء الأمة العربية ، وكانت مثار يقظة ونشطة وانبعاث؟

ووقعتْ فى يدى نسخة من ذلك الكتاب الذى ترجمه « عبدالعزيز فهمى » منذ عهد قليل ، ذلك هو « مدوّنة جوستنيان » فى الفقه الرومانى . . . مجلد ضخم زاخر بخلاصة التشريع فى ذلك الزمن البعيد ، هو آية إعجاز فى دقة التعبير وإحكام الأداء ، تتجلى فى ديباجة عربية بليغة عليها رَوْنَق ورُواء .

ونُمِّى إلىّ أنه احتبس فى داره ثلاثة أشهر ، يزاحم ليله بنهاره فى الترجمة والمراجعة والتنقيح ، حتى فرغ مما أراد فى الشهر الذى أكمل به عامه الخامس والسبعين ، فكأنه يتوّج تلك السنّ المباركة بذلك الجهد العلمىّ الرفيع !

كنتُ أقلب من صفحات ذلك الكتاب ، فتَرِفُّ حوالىّ صورة ذلك الرجل الذى لمحتُه متكمشاً على الأريكة فى دار المجمع ، غارقاً فى تأملاته ، أشبه مايكون بفيلسوف هندىّ من أولئك الذين أخذوا أنفسهم برياضات صوفية لايطيقها إلا الأقلون الأندرون . .

وذكرت بيت القائل :

وما المرء إلا الأصغران: لسانُه ومعقولُه والجسم وهم مصوّر

شاء القدر بعد ذلك بفترة أن أمضى فى الريف بعض يوم ، فجُزْتُ فى طريق « بكفر المصيلحة » — بلدة «عبدالعزيز فهمى» — فألفيتنى أقف برهة متطلعاً إلى تلك البلدة ، محدقاً فى بيت « عبدالعزيز فهمى » الشامخ ، ذلك البيت العتيق الذى هو بقية من دور الأسر العريقة فى الريف ، تلك الدور التى كانت مَثابةَ الآباء والأبناء والحفداء ، كلّ دار منها كأنما هى وطن يحوى أمة !

ولبثت أتسمَّع أحاديث الناس ، فإذا هى ألسنة تمجد مآثر الرجل ، وتُشيد بما له من فضل على تلك القرية السعيدة وأهليها المتصافين . . .

هذا يخبر باهتمام الرجل بالزرّاع من أهل مِنطَقَته ، يأخذ

بناصرهم ، ويوجههم وجهة التثمير والتعمير . . .

وذلك يفيض فيما كان للرجل من أياد كريمة لتمدين البلدة وتجديدها ، بتعبيد طرقها وتوشيتها بالمنازه والمؤسسات ، حتى لقد أضحت « هليوبوليس الريف » ، وأصبح هو « بارون امبان كفر المصيلحة » !

وثالث آخر يذكر كفاح الرجل فى سبيل نشر التعليم بين أبناء بلده ، فإن الأمية هناك لتتوارى فراراً أمام تلك المعاهد التى نفخ فيها الرجل من روحه ، فانبرتْ ترسل النور ...

فى هذه القرية المنزوية بين حواضر الأقاليم مدرسة ابتدائية لتعليم البنات ، فلا بِدْعَ أن يقصّ علينا متحدث رابع أطروفة فكهة ، تلك هى أن الفلاحات يخرجن فى الأصائل إلى النيل ، حاملات جِرارهن يَسْتَقِينَ ، فإذا ما صَدَرْن عن الماء آيبات إلى الدور ، وقفن فى منعطف الطريق ينتظرن . . . ينتظرن بائع الصحف ، حتى إذا أهلّ عليهنّ بِرِزْمته ، تخاطفنَ منه الصحف فى حمية وشغف ، واستأنفن سيرهن يتخطّرن ، وقد أمّلن على رءوسهن الجِرار ، ومضين يُرْوِينَ ظمأهن من أنباء السياسة وشئون البلاد ! . .

أذكتْ هذه الأحاديث شوقى إلى أن أجلس إلى « عبدالعزيز فهمى » جلسة تحية وتعارف ، فلما قفلتُ إلى « القاهرة » لم يهدأ لى بال حتى رغبتُ إلى صديق فى أن يضرب لى معه موعد لقاء . . .

وفى منتصف الثامنة من أُمْسِيَّةٍ يوم كنت أنا وصديقى أمام دار الزعيم ، تلك الدار الصغيرة التى ترفعتْ عن أن تنافِسَ فى ترَفِ القصور . . .

وما هى إلا لحظة حتى احتوانا بهو الضيافة ، ولبثتُ واقفاً أجيل الطرف حولى ، وقد شملتْنى رهبة ومهابة ، على الرغم من سذاجة مايحيط بى من مظاهر . . . طابع شرقى محافظ ، مُشْبَع بجو عائلى تشيع فيه الطمأنينة والهدوء .

فرُحت أهجِس :

هنا فى هذا البهو تلاقت شخصيات عظيمة ، واختمرت أفكار حاسمة ، وإن حيطانه الصوامت لتختزن أصداء ذلك اللفيفِ من الرعيل الأول الذى كانت خطاه رسْماً لأقدار « مصر » الحديثة فى نهوضها السياسىّ والاجتماعى والعلمىّ . . .

هذا البهو كعبة تكسوها غلائل من الجلالة والتقديس ، وإنى لأكاد أجشو من رَوْعَةِ التَّذْكار لما دار فى تلك المثابة من قول لم يذهب مع الريح !

لم تكد تمضى بضع لحظات حتى ارتقينا الدَّرَج إلى عُشّ الزعيم ، فأقبلنا عليه فى حُجَيْرة خشبية نصفها الأعلى نوافذ تنسدل عليها الأستار . . . وكان الزعيم جالساً فى ركنٍ خلفه مصباح ساطع النور ، وبين يده منضدة بُسِطَتْ عليها صحف فوقها كتاب مفتوح . . .

ورأيناه فى لبْسَةِ المُتَفضِّل : منامة صيفية ، وَقلَنْسُوَة بيضاء تترامى على مؤخر رأسه ، وكان لقاؤه لقاء السَّمْح الأريحىّ فى حفاوة شرقية أصيلة تنشرح لها الصدور . . .

جلستُ إليه دقائق مستغرقا فى صمتى ، شاخصا ببصرى لا أُرِيمُ وجه ذلك الرجل الذى تتضوّأ شيخوختُه أنيسةً محببة ، وأنا أصغى إلى كلمات الترحيب تتدفق من بين شفتيه فى عذوبة وصفاء . . .

وراعنى أول وهلة أنه مجهود الصوت ، مبهور الأنفاس ، حتى إنه ليقطع ترحيبه بفترات استجماع واستجمام ، فخشيت أن أكون قد لقيته فى وقت غير ملائم ، وجعلت أخالس صديقى النظرَ أُسائله ، فطمأننى بأن زعيمنا قد أَلِفَ هذه المجاهدة ، فليس عليه من ضير . . .

وأسرعتْ إلينا أقداح القهوة وكُشِفَتْ عُلبة اللفائف ،

وما هى إلا أن تفجرت ينابيع الموضوعات يطغى بعضها على بعض، وجرى الحديث طلقا زاخرا لا لغو فيه ولا فضول. فلبثتُ أستمسك بالإصغاء، مؤثرا ذلك السكوت الذهبىّ الذى يتيح لى أن أُودِعَ سمعى غوالى الكلام...

حديث «عبد العزيز فهمى» صورة واضحة من شخصيته: خِلابَة فى المنطق، ونَصاعة فى العرض، وصدق فى اللهجة...

إن الكلمات لتندفع على شفتيه مشبوبة الحيوية تتوهّج، وإنك إذ تستمع إليه لتستشعر خفوقَ قلبه وثورة دمه، فيتجلى لك مظهر رائع من حرارة الإيمان ونقاء الطوية وصراحة الرأى...

حسبك أن تجلس إلى الرجل جلسة واحدة تسمع ما يفيض فيه من الحديث، لكى يستبين لك جِماعُ الخصائص النادرة التى عُرِف بها فى حياته العامرة...

للرجل افتنان فى الأحاديث يتيح له أن يجوز بك آفاقا رحابا فى عالم الفكر، وله عون أىّ عون من ذاكرة أمينة بالغة الأمانة، وذكاء عبقرىّ لا تردّه حدود، ونزعة إلى الاطلاع تَعُبُّ ولا تَرْوَى.

وإنه ليحاورك ويطارحك القول دون أن يفرض عليك وجهة

نظر ، ولكنه يتجمع لبسط رأيه والإقناع به ، قوىّ العارضة ، طيِّع البديهة ، مُسْكِت الجواب !

كان « الباشا » بين الفينة والفينة يستريح ، وهو يدور بعينيه حوله ، كأنما يتلمس من الهواء عونا على تجديد الأنفاس ، ثم إذا هو يستأنف الحديث ، أندى صوتا وأقدر على مواصلة الكلام ...

ودخلتْ علينا الحجرة سيدة ما إن لمحتُ سَمْتَها حتى عرفتُ أنها قَهْرَمانَةُ البيت ، تفصح ملامحها عن إغريقية واضحة ... دخلتْ تحمل حفيد الزعيم ، يزوّد جدّه بتحية المساء ، فما إن رأى الطفلُ جدَّه حتى تعلق بعنقه ، وأقبل عليه الجدّ يبادله التحية والعناق ، وكانت التحيتان كلتاهما تتشابهان وتنسجمان فى الوداعة والسذاجة واللطف ، فـــلا غرو أن يلتبس الأمر على الناظر ، لا يدرى أيتهما تحية الجد ، وأيتهما تحية الحفيد ؟ !

وانصرفت القهرمانة بالطفل ، وما هى إلا أن رجعت تحمل قدحا فى قَرارته جُرعات الدواء ، فارتشفها الزعيم فى طوع واستسلام ...

وكنا بين حين وحين نسمع « الباشا » ينادى تلك السيدة ، راغبا إليها فى إحضار كتاب ، أو علبة لفائف ، أو كوب ماء ، أو غير

ذلك من الأشياء ، فتلبى السيدة النداء ، رزينة السَّمْت ، موفورة النشاط ، تزاول عملها في جدّ وإقبال ... تغدو وتروح في خفة ابنة العشرين ، وإن كانت بادنة تقدمتْ بها السِّنون ...

إذا دَخلَتِ الحجرة دبتْ بخطا متزنة عليها طابع السيادة والتأمُّر ، فيظهر لنا أول وهلة أنها قد وُكِلَ إليها أن تتعهدَ شأن الزعيم وتسهر على راحته . لا ينازعها في مهمتها منازع !

وقد نرى « الباشا » منبريا يتحدث عن قصص القرآن وما له في شأنه من رأى ، فإذا برغبة تهجِس في نفسه ، فلا يكاد يرفع الصوت مناديا تلك القهرمانة ، حتى نبصر بها أمامنا ، كأنما انشقت الأرض عنها ...

إنها لتحس رغباته قبل أن تسمع نداءه ، فتخف إليه بما يطاب ، في أسرع من رَجْع الطرف وخطف البرق .

حان وقت العشاء ، فَجِيءَ لكل منا نحن الثلاثة بصينية مستقلة زوِّدت بمعدَّات الأكل وصِحاف الطعام ، وأذكرتنى هذه الطريقةُ أسلوبَ الإطعام الأمريكىّ في الطائرات والمطاعم المسماة في « أمريكا » : « كافيتريا » ...

وهالى ما حفَلت به صينيتى وصينية صديق من أطعمه شهية مختلفة الألوان ، فرفعت عينى إلى صينية « الباشا » فإذا أوضح ما فيها

قارورة مُلِئَتْ حَسَاء بحمَّدا يؤخذ منه القدر المطلوب ليذاب فى قليل من الماء السَّخِين . وبجانب القارورة صَحْفة عليها شرائح رقيقة من شِواء ، وخلفها صَحْفة فيها قطع من الطماطم ؛ وغيرَ بعيد صحفة ثالثة فيها شِقَّة ضئيلة من فاكهة الشَّمَّام ...

والتفتّ إلى الصديق أسائله فيما أرى ، فأخبرنى بأنه لا يعرف أن « الباشا » زاد فى طعامه على هذا النحو ، منذ وصلتْ بينهما أسباب اللقاء !

وكانت القهرمانة تشرف على الخدم . تومىء إليهم فيأتمرون ، وتشير فينتهون . وما لبثتْ أن تولتنا بالرعاية والتعهّد ، تُلِحُّ علينا فى أن نأكل من هذه الصَّحْفة أو من تلك ، وكأنها بذلك تَسْلُكنا فى عِداد أطفالها المدلَّلين ، لزام أن نملأ البطون لنكبرَ ونترعرع . ونكسبَ رضاها الثمين !

وياطالما وقفتْ تُجَاهَ « الباشا » تأبى عليه أن يتكلم ، وتحثه على أن يستوفى حظه من الطعام غير منقوص ، فلا يملك زعيمنا العظيم إلا أن يرفع إليها بصره فى صمت هادىء ، وعلى محيَّاه طابع الحَمَل الوديع !

وفرغنا من الطعام ، وحُمِلَتْ الصوانى ، فعادت منضدة « الباشا » إلى وضعها الأول :

كومات من الصحف والأوراق يعلوها كتاب ...

ولاحظتُ أن « الباشا » يُعْنىَ بهذه الكومات، وكثيرا ما مدّ إليها يده ، يخشى أن يَفِدَّ منها شيء !

فنظرتُ إلى الصديق ؛ فإذا « الباشا » يفطُنُ إلى ما دار فى خاطرى من سؤال ، فأخذ يحدثنى عن هذه المنضدة يزهّدنى فيما حوت أكبر تزهيد ، ويهوّن من شأنها أبلغ تهوين ، ولكنه فى ثنايا حديثه أشار إلى أنه ينهَى أحدا أن يمسّ منها ورقة أو يكشف عن مكنون ، مهما يكن من أمر ، وأنه يبسط عليها الصحف واحدة تلو الأخرى . . .

فأدركتُ أن « الباشا » يتخذ الصحف دَرِيئَةً تستخفى تحتها ذخائر وكنوز ، كما يتخذ الجندىُّ أغصان الأشجار وألوان الرمال فى مناطق القتال ، تعمية لما يرغب فى سَتْره عن العيون . . .

سَطْحُ هذه المنضدة طبقات، فى كل طبقة رسائل وأوراق وأسانيد تتشابك بها ضروب من وقائع تاريخية وذكريات عزيزة وتعليقات فى علم وأدب وسياسة وتشريع ، وكأن كل طبقة من هذه الطبقات حِقْبَةٌ من التاريخ وكَرّة من الزمن عامرة بالكوائن والأحداث!

ذلك هو سر المنضدة ، نكشف عنه الستار ، وأمرنا إلى الله فيما يكون من عتاب وحساب . . .

عاد « الباشا » إلى حديثه الطلّى ، حتى مرّ هزيع من الليل ، لم نكد نصدّق أنه مرّ ، ولولا أنى آثرتُ راحة زعيمنا العظيم لما صَدَرْتُ عن ذلك المجلس الذى أصبتُ فيه رفيعاً من إمتاع السمع والعقل والروح . . .

وقفتُ خاشعاً أمام مُضيفنا الكريم ، آخُذُ بيده أحييه ، أحيي قوة شَعَّتْ أضواؤها ، فكان منها دستور ، وكان منها تشريع ، وكان منها توجيه وطنىّ آتى « مصر » أبرك الثمرات !

فى تلك اللحظة انتظَمَتْنِى تلك النشوة العُلويّة التى يستشعرها المرء فى مواقف الإكبار والتمجيد . . .

وخرجتُ راضياً عن نفسى كل الرضا ، بما أكسَبَتْنِيه هذه الزورة من التسامى فترةً فى أفق مثالىّ خالص من شوائب الأغراض التافهة ، وشواغل الحياة الرخيصة مما يَزْحم دنيا الناس !

غادرتُ تلك الدار ، وقد طَوَّفَتْ برأسى خواطر :

ذلكم زعيمنا العظيم ، يركَن إلى هذه الدار المتواضعة المستأجرة ، قانعاً فيها بتلك الحُجَيْرة الزجاجية ذات الأستار يقضى شيخوخته النبيلة فى حَشد من ذكرياته المعطرة بالمآثر والأمجاد !

لم تمتد عين « عبد العزيز فهمى » إلى أن تكون له قصور يتجلى فيها البذخ والترف ، بل لقد عفّ قادراً عن ذلك الضرب من كسب الحياة ،

وآثر لكرامته ولضميره أن يظل كلاهما بنجوة عن متاع خدّاع مصيره للزوال !

أعجبُ مايروعك من خصائص « عبدالعزيز فهمى » ظمؤه الدائب إلى العمل ، فإنه ليقضى أطول يومه فى تلك الحُجَيْرة الحبيبة إليه ، عاكفاً على المطالعة والمراجعة ، كأنه مُوَكَّل بالهوامش البيض فى الكتب يُنَمْنِمُها بما يجرى به قلمه من ملاحظة وتعليق . . . وإن العمل ليمتد به حتى يطغى على ليله ، وربما أسلمه إلى مطالع الأسحار ، ومابرحتْ أقداح القهوة تُوافيه ، وعُلَبُ اللفائف تغدو ملأى وتروح خالية ، والخَدَم يتناوبون خدمة ذلك المتهجِّد اليَقْظان !

حياة « عبدالعزيز فهمى » سلسلة من المغامرات فى سبيل العمل ، فهو لايحل مثابة ولا يشترك فى شىء إلا كان العملُ رائدَه فيه ، فإذا هو يثير حوله فورة النشاط والدُّءوب . . .

هيهات أن يكون سلبيًّا فى موقفه ، مكتفياً بملء كرسيّه ، فهو على يقين أنه صاحب رسالة لايستأنى فى أدائها حيثما حلّ ، مقتحماً فى سبيلها أشتات العوائق والأَشْراك . . .

يجلس عضواً فى لجنة الدستور ، فيكون أبا الدستور . . .

ويهبط الريف ، فيثير فيه ثائرة تعمير وتمدين وإصلاح . . .

ويتسنم ذروة القضاء ، فيقيم بأحكامه صرحا من القواعد الجديدة

يتمثل فيه استقلال الرأى وعبقرية الذهن ، ويصبح شغلا شاغلا لمعاهد الفقه والتشريع . . .

ويُدْعى إلى المجمع اللغوى ، فإذا هو السبّاق إلى ارتياد آفاق جديدة تحدوه إليها حرارة العقيدة وألمعية التفكير . . .

« عبد العزيز فهمى » فى شيخوخته العالية فتىّ العقل ، طلّاع دائما إلى التجديد ، وهو إلى ذلك قوىّ الشكيمة ، غلاب الحجة ، لا يتهيّب مواقف الاقتحام . . .

لا خلاف على أن « عبد العزيز فهمى » زعيم ، فإن زعامته ملء القلوب والأسماع والأبصار ، ولكن الحق أنه زعيم من طراز خاص . . .

وكان مُحالاً أن يكون الرجل زعيما من ذلك الطراز المعروف الذى تتولى فيه الزعامة قيادة الجماهير ، وتلتفّ حولها أشتات الطبقات ، وتحرص على اجتذاب الناس بشتى الذرائع والأسباب ، وتؤثّر فيهم بألوان المغريات ، حتى تأخذ بنواصيهم إلى ما تهدف إليه من أغراض وغايات . . .

ليس « عبد العزيز فهمى » بذلك الزعيم الشعبى ، فإن الزعماء الشعبيين يفتقرون إلى مِزاج خاص تتجلى فيه وفرة المرونة ، وسعة الحيلة ، وممالأة الأحداث ، وتحسّس الأهواء ، والتردد بين اللين

والعنف، طوعا لطوارىء الجَزْر والمَدّ... وإن ذلك كله ليتطلب من الزعيم ألا يكون متطرفا فى مثاليته، صُلبا فى عقيدته، متفردا برأيه، متحنّثا فيما يتخذ من وسائلَ لبلوغ الأهداف.

و «عبد العزيز فهمى» مِزاج رفيع من التطرف والصلابة والتفرد والتحنّث، تلك الخصائص التى تجعله زعيما من ذلك الطراز الخاص الذى يُورِى الزناد، وينفُخ فى الروح، ويبعَث اليقظة، ويختطّ الطريق؛ ثم يَدَعُ لغيره من الزعماء أن يخوضوا وسائل التنفيذ، ويمارسوا فى ذلك ضروب التجاريب.

هو صاحب «فكرة» يطرحها على أعين الناس، وليس عليه بعد ذلك أن ينافس فى تحقيقها، وأن يحتمل ما يقتضيه ذلك التحقيق من أعباء دنيوية لا يصبر عليها أصحاب المزاج المثالىّ المتحنثون!

«لعبد العزيز فهمى» فى أذهان عارفيه صورة تملأ الأفئدة رهبة وخشية، بما عَلِمُوه من حِدّة نفسه، وعُنْفِ مواقفه، ولكن هذا الرجل الجبار فى المواطن التى يُشَايِعُ فيها حقا أو يدفع ظلامة، ينطوى على «إنسانية» تتوهج فيها رقة العاطفة ورهافة الشعور...

ولعل أوضح ظاهرة تتمثل فيها «إنسانيته» العاطفية، أنه فى بيته لا يأبَهُ له اثنان:

الطفـــل .

والقـــط .

فحفيده إذا دخل عليه أخذ يعابثه فى جسارة واجتراء ، وراح يختطف ما يحلو له مما بين يديه ، وهو على ثقة أن جده الشفيق لن تبلغ به الثورة إن ثار حدًّا يُخاف !

وأما القط ، فإنه يقارب مجلس الزعيم ، فإذا زجره لم يكترث ولم يتحلحل ، وربما سمع القط نَأَمَةً بعيدة من أحد من أهل الدار ، فلا يلبث أن يلوذ بالفرار . . . وما أقرّ القطّ فى مكانه من مجلس الزعيم إلا إحساسُه بأنه فى رحاب طمأنينة وأمن ، وأن الزعيم وإن زجره بلسانه فلن يصيبه منه أذى !

لأستاذنا الأكبر تحية اعتذار ، ومودة إكبار . . .

طه حسين

أسرة طيبة ، تحيا حياة الريف الصميم ، فى قرية من القرى الصميمة ، بين ذُرِّيَّتها طفل كسائر الأطفال ، يظل إلى السنة الرابعة من عمره يتنفس فى جوّ الريف ، ويعيش فى منزل زاخر بأهله ، فى رعاية أب هو العائل السيّد .

ولم تكن حياة هذا الطفل مَظِنَّة لتعقيد ، فماضيها وحاضرها ومستقبلها واضح لايحتاج إلى كبير تفكير . . .

خطة فى الحياة مقررة ، ومنهج فى الدراسة مرسوم .

ليس عليه إلا أن يسير فى طريقه كأسلافه ، وكمن يعاصرونه وكمن يَلُونَه . . .

فقيه يتولى تحفيظ الطفل آى القرآن ، ويُرْسِخُ فى أعماق قلبه جذور الإيمان .

إنه طفـــل كبقية الأطفال ، وإن كان متميزاً بتوقد ذكاء ، ورهافة حس ، ولطف شعور . . .

ولكن لن يكون لهذا التميّز أثر فى حياة الطفل ، وفى نظام عيشه الراتب المقرر الذى ينتظره فى مستأنف العمر .

أقصى الأمانى فى نفسه وفى أنفس أهله وذويه أن يكون من متقدّمى الطلاب فى الأزهر المعمور ، فيؤهله ذلك لأن يكون شيخاً نابهاً من أئمة الدين وفقهاء الفتوى وعلماء الأحكام ، يخبّ فى جبته الفضفاضة ، وتتوج رأسه عمامة كبيرة تكفل له أبهة ومهابة ، فإذا الناس يلثمون يده أفواجاً يستمدون منها طيّبَ البركات .

ولكن حَدَث أمر ذو بال ، كارثة من كوارث الدهر ، وضربة من ضربات القدر ، التى يصيب بها الناس ، دون أن يدركوا لها كُنْهاً . . .

فَقَدَ الصبىّ بصره ، فكان فى هذا الحَدَث فصلُ الخطاب فى الغيب المستور .

إنه حَدَث ليس بالجديد ولا بالغريب ، فلطالما أصاب كثيراً من الناس ، دون أن يغيّر من مجرى حياتهم أىّ تغيير . .

وقد كان فى حِسْبانِ الأسرة أنه لم يغيّر من نفسية الصبى شيئاً ، ولن يكون له فى مجرى حياته أثر . . .

أكان العلم وقفاً على ذوى الأبصار ؟

أو ليس «الأزهر» يضم فى رحابه جملة من نوابغ المكفوفين ، لم

يَحُلْ فَقْدُ البصر بينهم وبين ما يشتهون من جاه العلم ومَنْصِب الدين ؟

إذن فليمض الصبيّ فى طريقه .

خطة فى الحياة مقررة ، ومنهج فى الدراسة مرسوم . . .

ولكن :

تقفون والفلك المحرك دائر وتقدرون فتضحك الأقدار

أقبل الصبيّ على حياته ، وانطلق قُدُما يوطد العزم على أن يبلغ الغاية المقررة ، ويستوفى المنهج المرسوم . . .

هكذا قرر بعقله ومنطقه ، بيد أن قوة أخرى كانت تعمل فى الخفاء ، تعمل جاهدة مختزنة وَقُودها لميقات يومٍ معلوم ، تعمل دون أن يدرى الصبيّ من أمرها أىّ شىء . . .

كان عقله السافر يقول :

ليس لنا فى الحياة إلا الاستسلام . سلبنى القدر شيئاً عزيزاً ، ولكن بماذا يستطيع مخلوق مسيَّر أن يجابه القدر ، وأن يعاند مشيئته ؟

إلا أن عقله الباطن كان لا يأبه لهذه الفلسفة القائمة على أصول منطقية مستقرة ، فجعل يضطرب ويضطرم ، متنكراً لتلك الأقدار ، محاولا أن يطلق جاحم ثورته للتغلب والانتصار . . .

ولم يكن لهذا العقل الباطن تدبير معيّن ، فقصارى جهده أن

ينطلق ، وأن يرفع عنه الوِقْرَ الذى يثقله ، وإنه ليعدّ عدّته ، ويتخذ أهبته ، ويرتصد للفرصة السانحة فيما يستقبل من الأيام . .

وعلى الرغم مما كان يلقاه الصبى من حَدَب وعطف ورعاية ، لم يكن بالفتى الضَّحوك ، طلق المحيا ، مرح النفس . . .

أكان يضيق بهذا الحدب والعطف والرعاية ، إذ يرى فى تلك المِنَحِ مثاراً لشجونه ، ويعدُّها علائم مواساة وإشفاق ؟ !

احتبس الصبىّ فى داره ، بل فى زاوية قصيّة من هذه الدار ، يقضى الساعات ساهم النفس ، مهموم الفؤاد . . فلم تكن حياة الدار بما يعتلج فيها من ضجة وصخب تبعث فيه أى إقبال ، فاستقل فى مملكته الصغيرة التى صوّرها فى خياله ، وسوَّرها لنفسه ، لتكون له معقِلا يكفل له صفاء التفكير والمناجاة . . .

ساعات وَحْدة طوال ، لايعمرها إلا التأمل العميق . . . فكان ذلك وَقُوداً حامياً يذكى ذكاءه ، ويشق لخياله رحائب الأفق . فتوهجت قريحته ، وصفا ذهنه ، وتسامت مخيّلته . . .

كان نضج عقله يسبق نضج جسمه ، فتجلت مخايل رجولته ، وهو فى طور اليفاعة ، فتىَّ السنّ .

وآن للصبّى أن يدخل « الأزهر » يُجاوِر . . .

واستقبل بواكير الشباب ، فانقاد بادىء بدء للنظم السائدة ،

ولكن هذه النظم فى الدرس والتلقين لم ترق فتىً كانت الثورة تتخلق بين جنبيه ، ويوشك شررها أن يتطاير ...

إن سدنة « الأزهر » يومئذ كانوا يريدون الطالب برميلاً خاليا يملأونه بما تيسّر من زاد متحجّر متوارث ، حتى إذا امتلأ أحكموا سدّه ، ثم ألقوا البرميل يتدحرج على مدرجة الطريق ، قائلين له : فلتذهبْ على بركة الله !

إلا أن طالبنا الثائر لم يكن يرضى لنفسه أن يكون ذلك البرميلَ المنشود . . .

فهو يرى فى بُرْدته إنسانا ، وهبه الله عقلا حيا يجادل به ويناقش ، لا يقبل قضية دون تمحيص واستكناه .

ومن ثمّ راح يسأل ، ويلحّ فى السؤال ، ويَرُوع مسئوليه بما لا عهد لهم به من جُرْأة وتمرد على المألوف ...

فضاق به السَّدَنَةُ المحافظون ، ولكنه ما برح يَجْأر بسؤاله ، حتى أيقظ من حوله طائفة من رفقائه ، تجمّعوا إليه ، واشتركوا معه ، يسألون ويتمردون .

وما لبث طالبنا الثائر أن أصبح زعيم المتسخطين الذين يريدهم « الأزهر » على أن يكونوا براميل تتدحرج على مدرجة الطريق .

وكان بديها أن تنتهى المعركة بخروج الطالب الثائر ، يلتمس الهواء فى أفق جديد !

بدأ الفتى حقبة من حياته ، حقبة حرية وانطلاق ... بيد أنه أحسّ كأنما قد ألقى بنفسه فى بيداء شاسعة الأكناف ، تعصف فيها هُوجُ الرياح ، لا يدرى ماذا يكون مصيره فى معركتها الدائرة ، فأذكى من عزيمته ، وألهب من همته ، وخاض الغمار فى حميّة وحماس .

فى تلك الفترة كان هناك رجل يعمل فى ميدان حر ، لإنشاء جيل جديد ، وبث روح أخرى غير الروح السائدة فى ذلك العصر .

كان ذلك الرجل هو « لطفى السيد » ، وكان ميدانه صفحات « الجريدة » ودارها ...

فصادف ذلك الميدان هوى فى فؤاد طالبنا الثائر ، وما هى إلا أن اندفع صَوبه ، فكان فيه طليعة الفتيان !

وعرف طريقه إلى « الجامعة » الناشئة ، إلى ذلك المنهل الصافى يستكمل فيه رِيَّه من علم وعرفان ..

وكانت حقا مرحلة انتقال جليلة الشأن فى حياة الفتى الثائر ..

لقد أقبل يتلقى علوم العصر ومعارفه ، على مناهج مستحدثة ، وأساليب لا عهـــد بها لمعهده القديم .. فتجلت نشْطَته ، وتفتقت موهبته ، وأحس بالظمأ المتجدّد إلى طلب المزيد مما بين يديه من بحث ودرس .

فضاقت « الجامعة » الناشئة عن تطلعه وطموحه ...

ولم تعد « مصر » تغنيه عما يريد . . .

فإلى كعبة العلم فى « فرنسا » .

إلى « جامعة باريس » !

هنالك آفاق فِساح من حرية التفكير ، وكنوز لا تنفَد من المعارف والعلوم ، وأمواج دفاقة من البحث والتحقيق والتنوير .

فانبرى الشابّ الطَّموُح يَعُبُّ ويتزوّد

وكان ذلك مرحلة انتقال أخرى فى التوجيه ، وخطوة واسعة فى سبيل التكمّل ..

وإلى هذه الحقبة ، يمكن القول بأن الحظ لم يُخْلِفْ ذلك الشاب الموهوب ، على الرغم مما حاق به من ملابسات .

ولكن هذا الحظ يواتيه متألقا سخيًّا ، إذ يهيء له اليومَ صاحبة كريمة ، ليست فرنسية بمولدها ونشأتها وحسب ، ولكنها فرنسية مثالية بثقافتها وفكرها ، مثالية بإدراكها لمهمة الشريك فى حياةٍ طلاعةٍ نزّاعةٍ إلى بطولة التجديد والبناء !

ومن ثم كَمَلَتْ للشاب أدواته ، واستقرت به الحال ، وتوضّح له سبيله فى مستقبل العيش .

فآب إلى وطنه، يزاول العمل، ويواصل الجهاد . . .

واضطلع بمهمته التى ادخر لها نشاطه ، وجنّد مواهبه ، مهمة النداء بثورة فى الميدان الأدبى ، والتبشير بمناهج حديثة فى البحث

والدرس ، والعمل على رسم أسس جديدة يشاد عليها « مستقبل الثقافة فى مصر » . . .

أستاذ فى « الجامعة » يذكى فى نفوس الطلاب شعلة التفكير ، وهو حيناً يلقى ضوءاً على جوانب من الأدب العربى ، وحيناً يشرع نهجاً للنقد الأدبىّ ، وحيناً يُدْنِى إلى قراء العربية زاداً من ثقافة « يونان » ، وحيناً يُجَلِّى لهم طرائف من نماذج الأدب الفرنسىّ ، وحيناً يسرد قصته فى « أيامه » فإذا به يطرف العربية بفن أخّاذ من القصص الرفيع لايجاريه فى روعته قلم . وهو إلى ذلك وغير ذلك كله رُوحٌ سارية وثابة نفاذة الأثر فى البيئة العلمية والأدبية ، تدفع الأساتذة والطلاب ، وتوجه القادة ومن بيدهم زمام الأمور إلى دعم الثقافة وتوسيع آفاقها وإصلاح خططها ، لتساير ركب الأمم فى طريق التحضّر .

« طه حسين » مزاج قوىّ بين حضارتين متغايرتين : حضارة الشرق وحضارة الغرب ؛ وعصارة طيبة من معهدين مختلفين : « الأزهر » و « جامعة باريس » . . .

وإن أصوله مابرحت راسخة فى حضارة « الأزهر » تستخلص منها عناصر غذاء لاغَنَاء عنها ، ولكن فروعه تسامقت فيناعةً فى حضارة الغرب وثقافته ، تتنسم منها الهواء ، وتستمدّ النور . .

وربما تبدو أول وهلة غرابةُ الجمع بين معهدين وحضارتين اختلفا كل اختلاف ، ولكن المتمعّن المدقق يرى أن ليس الجمع بينهما بالمتعذّر العسير ، فليسا هما على طرفى نقيض . . .

إنهما يرجعان إلى نبع واحد ، هو نبع المعرفة الإنسانية فى أصولها الأولى ، والخلاف بينهما هو أن كلا منهما يتميّز بما ليس فى الآخر . . .

هما عنصران أساسيان لشخصية الشرقىّ الذى يريد أن يصطحب أمجاده التليدة وميراثه العظيم ، دون أن يعوقه ذلك عن مسايرة الركب الإنسانىّ فى طريقه إلى الأمام . . .

وإذا كان « طه حسين » قد جمع فى شخصه بين « الشيخ » و « الدكتور » ، فقصارى ما فعل أنه لاءم بين نشاطين من ضروب النشاط الذهنىّ للإنسان ، وكان بهذه الملاءمة نموذجاً مثاليا للأديب الشرقى المعاصر .

وحسبُنا — لكى تتجلّى مزية هذه الملاءمة — أن نتمثل « طه » أزهريا استأثرت به أزهريته ، أو جامعيا لم يكن له من الثقافة العربية فى غمارها الملتطم نصيب . فإن الأزهرىّ أو الجامعى وحدَه قد يكون له أثره وخطره ، ولكنه لن يكون تلك الشخصية المثالية المكتملة التى نسمّيها : « طه حسين »

ولعل واسطة العقد فى شخصية أديبنا ، هى أسلوبه . . .

ذلك الأسلوب الذى تفرّد به صاحبه ، وعزّ على من استهواهم أن يحاكوه ...

ولستُ الآن بصدد العرض لمزايا هذا الأسلوب وخصائصه ، فحسبى أن أشير إلى أنه أسلوب طريف ، راع الناس بجدّته ومنحاه فى التعبير والتأثير ، ولا أدلّ على ذلك من قيام الجدل حوله بين الأشياع والنقاد ...

وما كان لأسلوب جديد مبتكر ألاّ يقوم حوله جدل ونقاش !

ولكن الذى لا جدال فيه أننا حين نُشيد باللغة العربية ، وقد زهت فى هذا العصر ، يطالعنا فيما يطالعنا على الفور :

أسلوب « طه حسين » !

فلا مِرية أن البيان العربىّ قد بلغ الآن من الازدهار مبلغا عظيما لا يقل عما بلغه فى أزهى العصور السوالف ، ولا مرية كذلك فى أن نعدّ أسلوب « طه حسين » مظهرا رائعا من مظاهر ذلك الازدهار .

الدكتور هيكل

لقيتُ « الدكتور هيكل » أولَ ما لقيتُه فى « رأس البر » قبل ثلاثين سنة ونيّف .

وإنى لا أفتأ أذكر هذه الثلقية معتزاً بذكراها أىّ اعتزاز ، فهى ذكرى رؤيتى — وأنا فى مطلع الشباب — لرجل كنا نتسامع به ، ونقرأ له ، ونترقب آراءه الوثابة الجريئة دون تعارف وصحبة .

كان « الدكتور هيـــكل » مدار حديثنا نحن الشبان ، ومَثار جدالنا فى مجالسنا الصاخبة ، وقد فتنتنا منه توجيهات جديدة فى النقد والأدب والحياة ، توجيهات مقتبسة من مشاعل الحضارة الحديثة فى « أوربة » ، يرجع فضل اقتباسها إليه وإلى رفقائه من ذلك الرعيل الأول الذى عاد إلى الوطن يهتف بالشباب أن يحمل لواء التجديد ، وأن ينتقض على عبادة الأصنام ...

أذكر أنا هذه اللقاءة الأولى ، وأجمَعُ ظنى أن « الدكتور هيكل » لا يذكرها ، فقد كان فى الحلقة التى ضمت نخبة من كبراء الرجال فى

شرفة فندق « كورتيل » فى ذلك المَصِيف الطريف . ولم أكن فى هذه الحلقة إلا سامعاً لا يعدو طَوْرَه ، ولاريب أنى كنت أشد إصغاء « للدكتور هيكل » منى إلى غيره ، وكذلك كنت أكثر شغفاً به ، وإقبالا عليه ، على ذلك الرجل الذى زفّ إلى الأدب العربى باكورة القصص المصرىّ . . .

وما قصة « زينب » بِسِرّ !

نحن الناشئة الذين كانوا يتطلعون يومئذ إلى لون من الكتابة يصف الحياة المصرية ، ويترجم عن نفسيتها ، لم نكد نلقَفُ قصة « زينب » ، حتى نصبناها قِبْلة نحوطها بالتجلة والإكبار ، ونستهديها سَنَنَ الطريق ، فلا غرو أن يكون صاحب « زينب » مهوى الأفئدة ، ومطمح الأنظار .

راعنى أول وهلة من حديثه لهجة رصينة تقصِد فى القول ، وتتجلى فيها حيوية الفكر . وما كان فى هذه الفترة الباكرة من عمره ممن يهيمنون على المجلس ، ويديرون دفة الحديث ، بل لقد كان يبدو ضنينا بمنطقه ، لاينا قِلُ الكلام إلا بقدر ، ولا يعدو داعية الضرورة ، فإذا تكلم سدَّد وأغنَى .

وقد انصرفتُ من مجلسى هذا ، وأنا أعتقد أن الرجل حَيِىّ تكسوه صبغة الخجل ، ومما أكد لى ذلك المعتقَد أنه كان كثيراً

ما يعتزل مجالس الفندق ، مُؤْثراً أن يعكُف على المطالعة .

وعجبتُ لهذا الرجل الخجول الصموت الركين : كيف يجول قلمه تلك الجولات التى تنقدح نارها فتبعث الثورة فى النفوس ، حتى إن رعاة القديم كانوا يعدّونه أمضى دعاة الجديد سلاحاً ، وأعنفهم لساناً ؛ وحتى إنه ليبلغ فى الجرأة والاقتحام ما لا يبلغ سواه ، فيرى فى الإصلاح الاجتماعى وفى نهضة الأدب وفى أسباب الحياة آراء عارمة ، ويعبر عن نزعات هدامة ، وينحو فى بيانه منحى لا يتقيد فيه بموروث الأساليب ، إمعاناً فى التحرر ، وإبعاداً فى إظهار الشخصية ، وجِداًّ فى الهرب من المحاكاة والتقليد . .

لعمرك ما كان خجلا ولا حياء ماتوهمتُه أما كذلك حين رأيته فى مجلس الفندق ، وإنما كان عفافةً عن اللغو ، وكراهة للثرثرة ، وصوناً للنفس عن سوانح الأحاديث . ومن ثمّ نأى بجانبه يخلو إلى صحائف الكتب مغترفاً من مناهل العقول .

* * *

استهلّ « الدكتور هيكل » نشاطه محامياً ، ولعله ضاق ذرعاً بتلك المحاماة الفردية التى تطالب بالحقوق الشخصية ، وتعالج ما بين الناس من خصومة ونزاع ؛ فسمَتْ همته إلى المحاماة العامة التى تضطلع بالقضايا الاجتماعية الشاملة ، فتناشد حقوق الشعب أجمع ،

ولذلك انطلق فى هذا الميدان الرحيب ، فظلت شخصية المصلح الاجتماعى هى الشخصية التى تطبع نشاط « الدكتور هيكل » منذ بزوغه حتى الساعة . وإن هذه الشخصية لتلازمه فى مراحل حياته وجوانب عمله ، يأنسها الناس فيه أديباً ومفكراً وسياسياً وزعيم حزب ورجل دولة . . .

شعلة متقدة من النداء بالإصلاح ، ورغبة قوية فى التحضر والنهوض ، لاتدع وسيلة من الوسائل إلا ابتغتها لتحقيق الغاية وبلوغ الهدف .

لا يكاد يستردُّه وطنه بعد رحلته فى سبيل العلم الجديد ، وارتوائه من الأدب الأجنبيّ ، حتى يتلفت حوله ، ليرى : أين اللون القصصى فى أدبنا العربى ؟

فلا يجد إلا تلك القوالب الجامدة التى علاها الصدأ ، وأخلقها الزمن ، فينبعث مقدماً ذلك المثال الطريف من القصة العصرية ، كأنه يقول : إليكم جهدَ الابتكار ، وثمرة الابتداع . فليكن شقاً للطريق ، وبذرة للفَنَن المنشود .

ويَرُوعه مايرى من تخلف البلاد فى المجالات الحيوية من تعليم واقتصاد ، فيُشْرِع قلمه معلياً كلمة الإصلاح ، داعياً إلى الأخذ بأسباب القوة والعزة ، ولكن بصيرته النيِّرة تهديه إلى أنه لاسبيل

إلى نهضةٍ ما كانت الأمة راسفةً فى أصفاد التبعيّة والاستعمار، وأن أمة لا تلى أمرها بنفسها ولا تملك قيادها : عزيز عليها أن تستكمل وسائل التقدم والارتقاء .

وإذن يجب أن يُعالج الداء فى مكمنه ، وأن تُجتث العلة من جذورها ، فهيهات أن يتحقق للبلاد نهوض وتجديد إلا إن تغير نظام الحكم ، وألقِيت مقاليد الأمور إلى أهل البلاد .

فحق على المصلح أولا أن يقتحم ميدان السياسة ، ويجاهد ابتغاء الحرية ، ويدعو إلى تحطيم الأغلال ، وكسب الاستقلال .

وكذلك ألفينا « الدكتور هيكل » كاتبا وطنيا يسدّد قلمه فى المعترك السياسىّ ، وما أسرع أن تجلت شخصيته فى الميدان ، وصادفت مواهبه تربة خصبة تنمو فيها وتترعرع ، فما كاد يقوم « حزب الأحرار الدستوريين » حتى رأينا الحزب يصطفى « الدكتور هيكل » لسانا ينطق باسمه ، ويعبر عن مَنازعه فى صحيفته السيارة : « السياسة اليومية » .

وكان الوقت عصيبا ، تغلى فيه العواطف الوطنية ، وتُفْضى بالزعماء إلى الفرقة والشقاق ، وتؤجج بينهم دواعى التنافس والنزاع . فكان اختيار « الأحرار » له فى هذا الموقف الدقيق برهان ثقتهم به ، وتقديرهم لكفايته ، وتعويلهم على نصرته . وإنها لمهمة ثقيلة

ألقيتْ على كاهله ، بيد أنه لم يَعْىَ بها ، فسار بجريدة « السياسة » على نهج صحفى غير مسبوق ، ورسم للصحافة اليومية فى « مصر » مثالا يضارع الأمثلة الكريمة للصحف السيارة فى العصر الحديث .

وفى هذا المنبر اليومىّ سنحتْ « للدكتور هيكل » فرص الإفضاء بما تنطوى عليه جوانحه من رسالات البعث فى شتى جوانب المجتمع المصرى ، فطالعتنا « السياسة » أول مرة بصحائف أسبوعية منوّعة موقوفة على الدرس والبحث فى العلوم والآداب والفنون ، وانفسح صدر « السياسة » لحملة الأقلام من زعماء الفكر يجولون ما طاب لهم أن يجولوا فى حرية وانطلاق .

* * *

وما انقضتْ أعوام معدودة حتى أحسّ « الدكتور هيكل » أن رسالة البحث الأدبى والاجتماعى يضيق عنها النطاق المحدود من الصحيفة اليومية ، وأن كثيرا من الأقلام يتطلب مجالا أكثر سعة . فأنشأ « السياسة الأسبوعية » للوفاء بهذا الغرض ، ولعله بذلك الصنيع قد شفى نفسه وأرضى ضميره ، إذ أفرد للعلم والأدب مثابة لا تشوبها شوائب الحزبية السياسية من تشاحن وعراك ، فهفا إليها كل قارىء مهما يكن مُتَّجَهه السياسى ولونه الحزبىّ .

تلاقت فى جنبات « السياسة الأسبوعية » قرائح الصفوة من

أعيان الأدباء والكتاب والمفكرين وأصحاب الفنون ، فكانت مجمعا ثقافيا يموج بالدراسات والمباحث ، ويجلو روائع تمثل طابع الفكر الجديد . . .

وإن المخضرمين من الأدباء ليذكرون أن صحيفة « السُّفور » تجلت فيها طلائع النزعات الحديثة فى الأدب والفن ، وعلى أنقاض هذه الصحيفة علا صرح « السياسة الأسبوعية » ، فرأينا كتّاب « السفور » الذين لمعت أسماؤهم فيها يعاودون نشاطهم من هذا المنبر العتيد . . .

لم تكن «السياسة الأسبوعية» لهوا صحفيا ولا عبثا ، وما كانت معرضا أنيقا لتزجية الوقت وتنعيم النظر ، وإنما خرجت بمباحثها ودراساتها كأنما هى جامعة ضمت مختلف الكليات ، فيها لكل طالب زاد . ولعلها كانت وليدة الضرورات والملابسات الاجتماعية فى تلك الحقبة من الزمن ، إذ كانت الجامعة الحكومية لما تزل فى مهدها ، طلابها نفر قليل ، على حين يتطلع شباب العصر إلى المعرفة والتأدب ، فكان على « السياسة الأسبوعية » أن تروى ظمأ الجمهور الراغب فى التثقيف والتنوير .

ضرب « الدكتور هيكل » فى غمار الحياة السياسية ، فعجمت عوده ، وأورثته تجربة وحنكة ، وبصّرته بالحياة الاجتماعية

ومالها من حقائق ودقائق . فلم يظل ذلك الشاب الطّرىّ العود ، العائد من عواصم الحضارة ، الثائر على التقاليد وأوضاع المجتمع.

وأحسسنا بوادر ذلك التطلع فيما يجود به قلمه من آراء وتوجيهات عليها لوامع من الاتزان والاتئاد ، تتجافى رويدا عن تلك الهبّات الثورية والفورات الجوامح فى الدعوة إلى الهدم والانتقاض . ومن ثم اكتسبت رسالته الإصلاحية مرونة وطواعية ، واتخذت لونا من اللباقة والمسالمة .

وإذا كان « الدكتور هيكل » قد وَخطه المشيب فى غير إبّانه ، فلعل ذلك مردّه إلى تلك الجلسة المفروضة المحتومة يجلسها وراء مكتبه كل يوم يدبج المقالة الرئيسة التى لا بد أن يطالعها الناس فى « السياسة » مع الصباح .

وما أشبه « الدكتور هيكل » فى ذلك « بعبد الملك بن مَرْوان » إذ سئل :

لم أسرع إليك المشيب ؟

فأجاب :

كيف تنكرون علىّ أن أشيب ، وأنا أعرض على الناس عقلى مرة كل أسبوع ، فى خطبة الجمعة ؟

فما ظنك بمن يعرض عقله على الجمهور الأكبر كل يوم ؟

وما ظنك به يعرضه مسجّلا ، مأخوذا بما كتب ، مسئولا عما أبدى ؟

* * *

لم يكن مقال « الدكتور هيكل » إلقاء للكلام على عواهنه ، أو تصيّدا للموضوع كما اتفق ، وإنما كان تعبيرا عن رأى ، أو تأييدا لموقف ، أو مهاجمة لخصم . وهو فى كل ذلك وليد تفكير سليم ، ودراسة للموضوع وثيقة الصلة بالحالة الحاضرة ، وإحاطة شاملة بمختلف العوامل والملابسات . وإنه إذ يكتب مقالة ليحسّ من حوله العيون والأرصاد ترقب ما يلفظ من قول ، وتتأهب لحسابه أعسر حساب .

* * *

على أن « الدكتور هيكل » لم تصرفه تلك الفريضة الموصولة من المقالة السياسية الرئيسة عن ولعه المكين بالأدب ، ونزعته الأصيلة إلى حياة الفكر . فكان يَضَنّ بوقت فراغه لا يبذله فى لهو أو دعة ، وإنما يَغْمُره بتلك الفصول البارعة فى الموضوعات الأدبية على اختلاف مناحيها ، فاجتمع له من ذلك الثمر مؤلفاته الموسومة : « فى أوقات الفراغ » و « تراجم مصرية وغربية » و « جان جاك روسو » و « ولدى » و « عشرة أيام فى السودان » و « ثورة الأدب » .

وعلى جميع هذه الكتب يغلب طابع واحد، ومرمى متميز، هو الجانب الاجتماعى. فهو يسجل «فى أوقات الفراغ» أصداء خواطره فى الحياة، وهو فى «ولدى» يخط فلسفة عميقة مناطها جوهر النفس وحقيقة الوجود. ولا يترك زورة «السودان» دون أن يقيد فيها تلك الملاحظات البصيرة للحياة الاجتماعية هنالك.

ولعل كتابيه «التراجم» و «جان جاك روسو» يكشفان لنا بواكير نزوعه وتطلعه إلى دراسة الشخصيات التاريخية الحافلة بعظائم الأمجاد.

فلما نمت تلك النزعة أثمرت فيما بعد أسفارَه القيمة فى سيرة رجالات الإسلام. وما عنايته بأولئك الأبطال إلا إبراز لهدفه الأكبر فى الإصلاح الاجتماعى، فإن الكشف عن جوانب هذه الشخصيات ومناهجها فى بناء الأمة وممارسة الحياة جدير أن يهدى الناس، فيبصرهم بأسباب القوة والعزة، ويجنبهم عوامل الضعة والاضمحلال.

* * *

بينما كان «الدكتور هيكل» يتسنّم مكانه من «السياسة» جازت البلاد بعهد الانقلاب الدستورى، فشاعت فى المجتمع المصرى صنوف الضغط والاضطهاد، فطوّحت فيما طوّحت بجريدة

« السياسة » . وكان نصيب « الدكتور هيكل » من فوائد هذه المصائب أن انزاحت عنه ضريبة المقالة الرئيسة فى الصحيفة اليومية ، واستقرّ فى بيته يعبّ من مطالعاته ، فكان فيما قرأه آنئذ كتاب « درمنغم » فى « حياة محمد » ، وما عتم أن استهواه ذلك التأليف ، فشرع يعرّف به ، ويعلق عليه فيما بقى له من الحُطَام الصحفى ، أعنى « السياسة الأسبوعية » . . .

وألفى « الدكتور هيكل » نفسه منساقاً إلى دراسة النبىّ ، كأنما عزّ عليه أن يسبق كاتب أجنبىّ إلى ذلك النمط الحديث من دراسة التاريخ الإسلامىّ ، كاتب أجنبى تعوزه أصالة المراجع ، وقرب المُسْتَقَى ، وتواصل الأنساب والمشاعر . فنهض هو يؤلف كتابه « حياة محمد » الذى يعدّ فتحاً جديداً فى التراجم العربية . ولا غرو أن يطير لهذا الكتاب صيت ، وأن يكون لذلك أثره فى أنفس الكتاب العرب ، فإذا هم يسترسلون فى تناول التاريخ الإسلامىّ عمثلا فى حياة أبطاله ، ويتفننون فى التأليف على أنماط مستحدثة لم تكن تمسها الأقلام ، فَعَمرت المكتبة العربية بنخبة طيبة من جديد التصانيف فى هذا الباب .

وربما كان من البواعث التى أغرت « الدكتور هيكل » يوضع كتابه أنه وجد « در منغم » على فضله وجهده لم يوف الموضوع

حقه ، وأن النبيّ لم يُنْصَفْ فى كثير من كتب الأجانب على وجه عام ، بل لقد أثيرت حوله شُبَه تَغُضّ منه لا يُقرُّها حق . فانبرى فى كتابه يدفع تلك الشّبه ، وينصِب الميزان بالقِسْط لتلك الحياة الفريدة فى عصور التاريخ .

وخليق بالإشادة ماقصد إليه « الدكتور هيكل » من إبراز حياة النبي صلوات الله عليه فى صورة إنسانية محضة ، ليس فيها إغراق فى الوصف ، ولا نبوّ عما هو مألوف من طبائع البشر . وإن فى ذلك لحدّا فاصلا يَفْرُقُ بين ما كُتِبَ بالأمس عن النبيّ وماجرى به قلم « الدكتور هيكل » فى ذلك الكتاب . كان التوفيق حليفه فى الملاءمة بين طبائع البشرية وخصائص النبوة ، وما كان أحوج الأمة الإسلامية إلى هذا التصوير الذى يجمع بين الحُسْنَيَيْن فى دقة تحقيق ، وعدالة حكم ، وخلوص من شوائب الأهواء .

ولم يكن عجباً أن يلقى هذا الكتاب ما لقيه من إقبال ، وأن يكون فى ذلك مايغرى « الدكتور هيكل » باقتحام كنوز التراث الإسلامىّ الذى تحجبه الأوراق المصفرّة ، والأساليب القديمة المستعصية ، فاندفع فى مطالعاته مسترسلا فى التمحيص والتخليص ، والتنوير والتبصير .

* * *

وأذّن مؤذّن الحج، فأحس «الدكتور هيكل» شعوراً غلاّباً يحضّه على اجتلاء معالم الذكريات ومواطن الأحداث التى حلق فيها فكره أثناء تأليفه «حياة محمد»، فاستجاب لهواتف نفسه، وانخرط فى غمار الحجيج يؤدى المناسك، ويتملّى فى نشوة وشغف تلك المعاهدَ المقدسة، مُتَنَسِّماً عَبَقَ التاريخ الإسلامى فى انبلاج صبحه، وانبثاق دولته.

وجاشت فى قرارة نفسه روح الفنان، فما إن آب من حجّته حتى ألفى قلمه يترجم ما انطبع فى سريرته من مشاهد ومشاعر، فاتسقت له تلك الفصول الرائعة التى ضمنها كتابه: «منزل الوحى» تشيع فيها حرارة الوجدان، ويتجلّى صدق التعبير.

ولا مَعْدَى للناقد أن يَعُدَّ هذا الكتاب ختام عهد من الحياة الفكرية «للدكتور هيكل»، وفاتحة عهد جديد لهذه الحياة واضح المعالم والسمات. فقد انطوى عهد الشباب النزّاع إلى الهدم، الثوّار على مألوف الأوضاع، وانفتح عهد الرجل الذى تسوده الطمأنينة والإيمان، ذلك الذى يرى أن الاستمساك بالمحافظة، وإذكاء النزعة الدينية، والهُتاف بأمجاد القديم، لا يعتاق خُطَى الأمة، ولا يتخلف بها عن الركب السيّار إلى الأمام. بل لعل

ذلك مما يعين الأمة على أن تستهدى بمقوّمات تستطع بها شخصيتها مستقلة واضحة التميّز .

مضى « الدكتور هيكل » فى هذه السبيل صادق العزم ، يجلو التاريخ الإسلامى ، مُحبَّباً إلى العقلية الحديثة ، مرضيّاً عنه من المناهج المعتبرة فى البحث والدرس والتحليل ، فأخرج كتابيه : « الصدّيق أبو بكر » و « الفاروق عمر » ومايزال بين يديه برنامج متراحب الجنبات ، موصول الحلقات ، يوغل فيه كما يريد .

وقارىء هذه الترجمات التاريخية يرى « الدكتور هيكل » فيها كأنما يرضى ميله النفسى إلى الحياة السياسية ، فهو فى هذه الحقبة من تاريخ الدولة الإسلامية أمام جملة من الأحداث الفاصلة ، يكثر فيها القواد والزعماء ، وتتناوح الآراء والأهواء ، وتتنازع الفرق والأحزاب . فالمجال بين يديه خصيب للموازنة والمعارضة والترجيح . ومن ثم يتابع فى هذه الآفاق التاريخية حياته السياسية ، ويمارس تجاربه فى تقليب وجهات النظر ، ودراسة الخطط ، ونقد الحكومات والحكام !

وهيأت الأقدار « للدكتور هيكل » أن يكون رجل دولة : وزيراً فى وزارات شتى ، وزعيم حزب سياسى ، ورئيس مجلس برلمانى ، وقد تقلب فى هذه المناصب ، فما أحالت خَلْقَه ، ولا طغت

على روحه ، ولا طوّعته لنظام مفروض ، وطابع مرسوم . فهو فى جميع تلك المناصب يُظِلُّها بشخصيته فيسبغ عليها مايريد من توجيه وإذكاء ، ولم يستطع واحد من مناصبه التى تسنّمها أن يطويه تحت جناحه ، أو أن يملك قياده .

ذلك لأن « للدكتور هيكل » فلسفة خاصة فى ممارسة الزعامة ومزاولة الحكم ، فعقليته الحرة الطليقة لاصبر لها على أن تتقيد ببرنامج تخطه ، ومنهج تترسّمه ، بل إنها روح تسرى فى جوانب الأعمال فتبعث فيها اليقظة ، وتنفى عنها العوائق ، وتيسر لها وسائل الإنجاز .

ولست تراه إلا معنياً بالسياسة العليا لتوجيه المناهج والمشروعات ، واكلا إلى أعوانه وضع الخطط العملية وتنفيذها وَفْق هذه السياسة ، متلافياً بألمعيته ولَمّاح فطنته مايكون فيها من عِوَج .

فيهات أن تطلب منه عكوفاً على رسم خطة مفصلة ، لها بداية ونهاية ، لأنه رجل يسمو ذكاؤه وطلاقة عقله فوق الحدود والقيود .

كان يوما على دَسْت وزارة المعارف ، فأنى أحمال الأضابير والأضاميم تنتظره ليرى فى كل ورقة تحويها رأىَ الوزير ، فأزاغ عنها بصره ، وانتبذ من المكتب مكانا يخلو فيه إلى تفكير والتدبير ، وتمخضت جلساته عن منشورات فى التوجيه لسياسة التعليم ، ما أشبهها بمقالاته الرئيسة التى طالما جادبها قلمه ، ولعله حَسِب نفسه

يومئذ أنه لم يفارق بعدُ مكتبَه فى جريدة « السياسة » وأنه مازال « رئيس تحرير » يجب أن يقدم زاد الجريدة فى موعد مضروب !

أتيحت « للدكتور هيكل » فى مطلعه نشأة كريمة ، واتفقت له فى شبيبته صحبة كريمة ، فاكتسب من الخصال الاجتماعية صفوة مهذبة أعانته على أن يكون مثلا لرجل السياسة الرفيع فيما يأخذ وما يدع .

لقد صاحب « عبد العزيز فهمى » و « لطفى السيد » و « عدلى » و « ثروت » و « محمد محمود » وأضرابهم من رجالات تفرد كل منهم بعبقرية خاصة ، وامتازوا جميعاً بعظمة النفس ومتانة الخُلُق .

أظهر مايتجلى من أخلاق « الدكتور هيكل » أنه رحب الصدر ، نبيل الخصومة ، لاتفوته الفرصة السانحة ، ولا ييأس من استدراك مافات . فهو مَرِن فيما يواجه به الأحداث ، يتحيّل للوسيلة ، ويتفطن لدواعى التأثير والإقناع .

ومما لاخلاف عليه أن « الدكتور هيكل » يبلغ من « ديمقراطية النفس ما لا يبلغه غيره من زعماء السياسة ورجالات الدولة . فهو متواضع صادق فى تواضعه ، وديع أصيل فى وداعته . وربما كانت هذه الخَلَّة مَثارَ النزاع الدائب بينه وبين مطالب الزعامة فى سلطانها الغلاّب !

منصور فهمى

إذا أحضرنا فى مخيّلتنا عصرَ ما قبل الحرب العالمية الأولى، وما كان فيها من وثبة فكرية وتطلع اجتماعىّ، تجلى لنا على الفور لوحٌ مصوّر تتلاقى فيه صفوة من نبهاء الشباب، من بينهم: «هيكل» و«طه»، و«ضيف»، و«عزمى»، و«منصور فهمى».

وعجَبٌ أن يتلاقى هؤلاء فى إطار واحد، على الرغم مما بينهم من تفاوت فى النشأة، واختلاف فى الدراسة، وتباين فى الأهواء والأهداف.

ولكن ثمة آصرة جمعت بين أولئك، ووحّدت كلمتهم لإعلاء راية الفكر فى «مصر».

لقد كانت تسرى بين جنوبهم جميعا روح فَتِيّة تهدف إلى ابتعاث أمة جديدة ناهضة، وبث حركة فكرية فى شتى مناحى المجتمع المصرىّ من سياسة وثقافة وأدب واقتصاد.

هذه الصفوة الكريمة كأنما كانت عُصبة قوية خرجت إلى مثابة

الحضارة فى « أوربة » تتضلع من زاد العلم والمعرفة ، وترتوى من مناهل الحرية ، حتى إذا آبت إلى الوطن تسنّى لها أن تستخلص الأمة من موقفها المتخلف ، وأن تغذّيها بدم جديد ، وأن تشيع فيها أسباب اليقظة والقوة والتحضّر . فتمضى فى ركب الإنسانية إلى الأمام .

إن هذه البعثة لتعَدّ الثانية بعد الرعيل الأول الذى بعثه « محمد على » إلى « أوربة » إبّان حكمه ، وإن تأثير هذه ليماثل تأثير تلك ، من حيث إشاعة النور فى ربوع الوطن ، وتنشئة جيل جديد .

ما إن عاد هؤلاء الشبان — الذين أصبحوا فيما بعد قادة الفكر — حتى أحسسنا نشطة تدبّ فى كيان الامة ، ويقظة تهز أوصالها . . .

كان لهم فى كل صحيفة مقال ، وفى كل حفل خطاب ، وفى كل معهد درس ، وفى كل اجتماع حديث ، وفى كل حركة أو دعوة او عمل توجيهٌ أو إيحاء أو ساعدٌ أشدّ . . .

وسرعان ما التف حولهم الناشئة أنصارا وشيعة ، يرتشفون من معين فكرهم الدفّاق ، فتخلقتْ مدرسة هى « مدرسة التجديد » هدفها الحرية الفكرية ، وإقامة دعائم قوية يعتلى بها صرح

النهضة القومية ، وتستردّ بها « مصر » مكانتها فى الصف الأول من الأمم الحيّة . . .

سطع « منصور فهمى » بين هؤلاء نجما لمّاح اللألاء ، وتسامى علما قوىّ الخفوق تتطلع إليه الأنظار .

رحل إلى « أوربة » لكى يعود أستاذا فى « الجامعة » الناشئة ، ولكن كان أن عاد ليعمل خارج « الجامعة » بعض الوقت ، فإذا به يؤدى فى المحيط الثقافى والصحفى رسالته الجامعية ، رسالة التجديد والتنوير ، ناشط الفكر ، قوىّ الأثر . . .

إن نظرة خاطفة إلى معالم حياته لتجعلك تلمّ بعناصر تكوين نفسه ، وما جُبِل عليه من خُلق . . .

تقلبت به الحياة ، ولم يكن له الحظ مطواعا كل حين ، ولكنه أفاد من إخلاف حظه حينا ومن تقلبات حياته المختلفة ، فلم تمرّ به مرحلة من تلك المراحل عبثا . . .

كان يطلب العلم فى « فرنسة » ، فلم يكن ذلك الطالب الذى يحشو رأسه بالمعلومات ليظفر بالإجازات ، يرى فيها غاية المُنَى وفصل الخطاب ، وإنما كان يدرس ليتفهم ويتفطن ، وليمايز بين حضارة الشرق والغرب ، ويوازن بين ما يتلقّى من المبادئ والقواعد والآراء وبين واقع الحياة فى دنيا الناس .

لقد جاوزت دراسته نطاق المسموع والمقروء إلى نطاق المشهود والملموس . . .

لقد رمى بنظره وراء الكتب والمحاضرات ، فمضى ينفذ بين أمواج الحياة ، ويسبر أغوار المجتمع

وأخيرا دارت فلسفته حول محور « الخير والشر » فى طبيعة البشر ، ومدى استطاعة الإنسان أن يستكثر من الخير ويتجنب من الشر بما يستمسك به من أصول الأخلاق .

فى نطاق هذه الفلسفة عاش « منصور فهمى » حياته الثقافية ، وفى ظلها نما و بنى وشاد .

كان « منصور فهمى » ـ وهو طالب فى « باريس » متوفر على الدرس والبحث ـ كاتب سرّ المغفور له الملك « فؤاد » وهو يومئذ أمير نزيل « باريس » . فلما قفل الدكتور الشاب إلى « مصر » خاض غمار الحياة ، فمرة هو فى « جمعية الهلال الأحمر » من أركانها ويوما هو فى « مدرسة الحقوق » أستاذ نابه الذكر ، وهو فى اليوم بعد اليوم كاتب فياض القريحة ، أو محاضر سخىّ البديهة ، أو محدّث يتميّز حديثه بالطلاوة والحرارة والجدّ .

ثم استقر به المقام فى « الجامعة » التى أعدّ لها ، وخُلقت لأمثاله ، يصوغون فيها من ناشئة الوطن ذلك الجيل المنشود .

ولا مِرْية أن الفترة التى قضاها فى صحبة الملك « فؤاد » فى « أوربة » وفى « مصر » ، وأن اتصاله بالجماعات والمؤسسات العامة كان له فى نفسه أثر ملحوظ ، فقد بَصره ذلك كله بالحياة الاجتماعية ، وأكسبه مرونة السياسة وحنكة الاشتغال بالشئون العامة ، وعلمه كيف يساير النظم العملية ، ولا ينساق فى أودية النظريات تَشيع فيها أوهام الخيال .

وليس عجيبا أن نرى « منصور فهمى » ، بعد أن عرك الحياة فى حقائقها الواقعة ، قد اصطبغت مبادئه ودعواته ونشطاته بصبغة المحافظة والاستمساك بمأثور التقاليد وموروث القوميات ... وقد بلغ فى هذه السبيل مبلغا يَسَّر لبعض المتطرفين ، ممن فتنتهم خِلابة الجديد وخطفت أبصارهم أضواء المدنية الحديثة ، أن يأخذوا عليه هذه الروح ، وأن يصفوها بالتزمّت الذى يسوق صاحبه إلى الرجعية وتقديس القديم .

ولكن الحق أن « منصور فهمى » قد اختط لنفسه خطة واضحة فى توجيه الحركة الفكرية .

خطة تأبى الثورة والانتقاض ، وتؤثر الهوادة والرفق فى ملاءمة التطور والانتقال من حال إلى حال ، وتوصى بالتبصر فى ترك ما نترك من القديم ، وفى قبول ما نأخذ من الجديد ...

خطة تنكر التفريط فى أىّ مشخص من مشخصاتنا القومية ، وترى فى هذه المشخّصات عصمة للأمة من التّميّع والانزلاق وإهدار الكيان الخاص .

خطة تعتزّ بجوهرة الشرق الغالية : طابعه الروحى ، فلا مناص من إعلاء الروح على دعائم من العقيدة والإيمان ...

درس « منصور فهمى » الفلسفة وما يتصل بها من فروع العلوم والآداب ، ثم شرع يدرّسها فى « الجامعة » ولكنه لم يكن يلقيها دروس معلومات ومقررات ، وإنما كان ينفض فى دروسه قلبه وعقله وفكره ، فيبث روحه فى أنفس طلابه ، ويثير بين جوانحهم رغبة البحث والتطلع والتأمل ، توصّلا إلى تعرّف القِيَم الإنسانية فى حرية وإخلاص ...

ولعل مردّ ذلك إلى أن حياة « منصور فهمى » ونفسيته موصولة أوثق اتصال بما يدرسه من الفلسفة ونواميسها ، ولاسيما الجانب الأخلاقىّ منها .

وعنده أن الفلسفة ليست نظريات وأخيلة ، وإنما هى وسائل تبلغ بالإنسان مراتب من حياة نموذجية رفيعة تدنيه من الخير بمعناه العام ، ومن السعادة فى مَثَلها الأعلى ، فهو يحاول أن يطوّع الحياة الواقعية لتلك الفلسفة المقررة ...

وما حياته الشخصية إلا الصراع الأول لتلك المحاولة، فهو أقرب شبها بمن يكتشف لوناً من الدواء، لا يطمئن له بال إلا إذا زاول تجربته فى نفسه خاصة...

تواصل نشاط « منصور فهمى » عشرات من السنين، نشاط فكرى واجتماعى موفور الثمرات، ومن عجب أن هذا النشاط فى ذلك الزمن الطويل لم يُسَجَّل منه حتى اليوم إلا نشاط ساعات قلائل، حواه كتابه القديم:

« خطرات نفس »

لك أن تسميه كتاباً، ولك أن تسميه صوتاً منبعثاً من قرارة النفس، يبغى أن ينفذ إلى قرارات النفوس. ولك أن تسميه سمراً رفيعاً يتحدث به صاحبه إلى الناس حديثاً عامراً بضروب من التأملات واللفتات فى الحياة والأخلاق.

لهـذا الكتاب قيمته فيما سجل من آراء وخواطر، وفيما تستشعره فيه من نبضات قوية تخفق بها الصفحات.

ولكن ثمة ميزة فى هذا الكتاب جديرة أن تكون موضع التقدير من مؤرخى الأدب فى نهوضه الحديث، تلك هى ميزة التعبير والتصوير...

كانت العربية فى فواتح هذا القرن تعانى فوضى المعانى وشرود

الألفاظ ، فكان يعوزها التحديد والتركيز ؛ حتى يؤدى كل لفظ معناه الخاص ، وحتى لا تلتبس المعانى وراء زخارف الألفاظ . فجاهد النفر الكرام من روّاد الفكر فى تخير الكلمات وضبط دلالاتها على مختلف المعانى .

وإن أسلوب « منصور فهمى » فى « خطرات نفسه » لهو مظهر من مظاهر التوفيق فى هذه السبيل . فهذا الأسلوب يُعد نموذجاً للبيان العربى فى طوره الجديد . . .

وكذلك لم تكن « المقالة » فى مطلع هذا العصر — على وجه عام — إلا مجموعة معلومات واستطرادات واستشهادات فى غير نظام أو تنسيق .

فَنَهَدَ لها أولئك النفر الكرام ، يجعلون كل مقالة محدودة الفكرة ، محدودة المعنى ، واضحة الغرض ، حتى تسنمت تلك الذروة التى نراها فى عهدنا الحاضر .

وإن هذه « المقالة » لتدين « لمنصور فهمى » بأنه فى طليعة من أحلّوها هذا المقام الكريم . . .

لم تنته « خطرات نفس » بذلك الكتاب الذى تلقفته أيدى القراء ، وإنما هى أجزاء تتوالى وتتلاحق ، يرسلها « منصور فهمى » فى أحاديثه وخطبه يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة .

وإنه لتروعك منه صلابة فى الدفاع عن حق ، أو الانتصار لفضيلة ، صلابة قد تُشعرك الرهبة والهيبة ، ولكن سرعان ماتنكشف لك تلك النفس عن طِيبةٍ وتطامن ودماثة طبع ، حتى لتكاد تأنَسُ منها ببراءة الطفولة .

ولعل هذا سرّ قوة الرجل ، فإنه ليجمع فى إهابه غضبة الليث ووداعة الحَمَل ، ترى منه الجرأة والصلابة والإباء فى المواقف التى تتطلب ذلك منه ، فإذا تجافيتَ به عن تلك المواقف ، تجلى لك جليساً لين العريكة ، إنسانى الروح ، شاعرىّ الحديث .

لحياة « منصور فهمى » عنوان جلىّ ، هو : «الصداقة » !

الصداقة التى تحوى ضروب الفضائل الأصيلة الغالية من وفاء مكين ، وإخلاص محض ، ووِداد مُصَفّى .

وإن « منصور فهمى » ليسخو بصداقته ، حتى لتراه : صديق تلميذه ، صديق مرءوسه ، صديق عشيره . . .

إنه لصديق أريحىّ ، فى نَبْع صداقته لكل من يرجوها نصيب !

أحمد أمين

أكنتَ سائرا ضَحوة يوم فى شارع « قصر العينى » فصادفت امرءا يعبر الطريق ، وهو يسارق الخطا ، هَيّن المِشية ، خاشع البصر ، يتلفت فى مراقبة وحِذَار ، كأنما يستخفى عن أعين الناس؟

لو تاح لك أن تصادف امرءا هذه صفته ، لجرى فى خاطرك على الفور أنك ترى رجلا من أولئك الذين نَنْعتُهم بطيبة النفس ، وصفاء النية ، والكفّ عن الضرب فى غمرات الحياة ، ولحدَّثَتْكَ نفسُك بأن هذا الرجل يستوحش من الدنيا ، كأنه بين أهليها غريب !

ولعلك لا تلبث أن تجد الرجل قد أثار بين جوانحك عاطفة من التَّوسّم له ، والتعرف به ، فإذا أنتَ متأثِّرٌ خُطاه ، تريد استطلاع أمره ، يحدوك إلى ذلك ما تلمح من سَمت غير مألوف .

وما هى إلا أن ترى الرجل قد عَرَّجَ على دار « المجمع اللغوى »

وأخذ يتسامى على سُلَّمه ، متلقيا من حوله تحايا الاستقبال ، وهو يردُّها بأحسنَ منها فى وداعة محبَّبة تجلوها ابتسامة خَفِرة ، وإنك لتجده يسخو بهذه التحية لمستقبليه من الكبراء وغيرِ الكبراء بدرجةٍ سواء .

ويستهويك ما تشهَدُ من أمر الرجل ، فتتابعه فى مسيره ، حتى يُسْلِمَك إلى قاعة مديدة تَغَصُّ بمنضدة مبسوطة ، قد ترصَّصَتْ عليها كتل من الأسفار ، ما أشبهها بجماجم أثرية ضخام !

وثَمَّةَ ترى صاحبك قد أوغل فى القاعة ، حتى إذا بلغ منها مكانا قصِيًّا ، اتخــذ مجلسه فى سكينة وركون ، كأنه يخشى أن يشعُر بمَقْدَمِه أحد ، وما أسرع أن يمُدَّ يمينه إلى سِفرٍ من هذه الأسفار ، فيقلب من صفحاته لحظات ، ثم يمسك عنه ، وقد تكمش فى مجلسه وأطرق ، حتى لتقول أَغْفَى !

وتعمُر جوانب القاعة بالقُصَّاد ، ويكتمل الجمع ، فيتجاذب الرفاق أطراف النقاش ، وتدور بينهم معركة الرأى حامية الوطيس ، وصاحبك على حاله . لا تنبس له شفة ، ولا يطرِف له جفن ، فتحسب أنه ساهٍ عما حوله ، لا يجرى شىء منه بباله ، فتتركه وشأنه ، ويشغلك التحاور والجدال وفيما أنت كذلك إذ يداعب سمعك صوت يختلج مترفقا يحاول أن يجد له طريقا فى ملتطم ذلك الزحام ،

فإذا تبينتَ القائلَ عرفت أنه صاحبك المنطوى على غفوته ، فتأذَنُ له وأنت عليه مشفق ، فيروعك أنه قد استبطن الصميمَ من البحث ، وأنه يجمع لك فى فقرات ما تشعَّث من أطراف الرأى ، ولا يُعتِّم أن ينتهى بك إلى حكم تأنَس إليه النفوس ، وتضيق به فسحة الخلاف !

وتظل مسحور السمع بهذه المساجلات الطريفة التى تصطرع فيها عقول ، وتَسْطع بَدَائه ، غافلا عن استشارة تلك الساعة العتيقة التى تبرز على حائط القاعة ، وما أنتَ لو استشرتها بمستفيدٍ ضبطاً لوقتك ، فإنما هى ساعة جَمعية ، كأنما أُعْلِيَتْ فى مكانها لتستهزىء بدورة الفَلك ، وتسخَر من حساب الزمن !

ولتَجِدَنَّ المناقشات قد تناوَحتْ يمنة ويسرة ، ولربما اشتدّ اشتباكُها واحتدّ ، وأنت معقودُ العين بصاحبك ، تقفُو مشاركاته فيما يتراءى من وجهات النظر ، فإذا بشخصيته تتوضح لك شيئاً بعد شىء ، وكأنك تجتلى كتابا شائقا جدَّ شائق ، كلما قلبتَ من صفحاته ازددتَ به من تعلق ، وطمحتَ منه إلى جديد !

إنه فى شتى مناقشاته ومناقلاته لا يفارق سَمْتَه ، فهو أبدا هادىء القَسِمات ، رفيق الإشارة . أَرْيَحِىُّ الروح ، يتميز بذلك الصوت المختلج الحَيِّ . . . ولكنك تستبين من وراء ذلك كله

إيمانا منه بفكرته ، وثباتا فى تعزيزها ، ولباقة فى الدعوة إليها .

وإذا بهذا الرجل الذى رأيتَه أولَ مارأيتَه متكمشامستوحشا ، فحسبتَه ممن لاحظَّ لهم فى معترك الحياة — قد تفتَّق إهابه عن زعامة بصيرة قادرة تنتهج لها طريقا لا عِوَج فيه .

وتَعْجَب لصاحبك ، وقد استحرّ نقاشه ، وجعل يطارح رفاقه مصطلحات العلم فى صلابتها وخشونتها ، إذ تراه وقد دسّ بين هذه الصخور والجنادل — فى الفينة بعد الفينة — مُلْحَةً فَكِهة ، أو مُزْحَة طريفة ، لا تلبث أن تُشِيع فى جوّ المجلس نَسْمَة من الطرب والمِراح . فتعلم أن صاحبك على وثاقة علمه ، وأصالة وقاره ، يجيد ما يجيده « ابن البلد » من خفة وظَرف وإيناس ، فهو يحسن أن يستخرج من اللفظة الجافية « لابن سِيدَهْ » ، أو القاعدة المعقَّدة « لسيبَوَيْهِ » نكتةً ضاحكة ، أو دُعابة لطيفة ، تحيل تلك الجنادل والصخور رياضا حالية بالنَّضْرة والازدهار ...

ولا يكاد ينتهى بك المجلس الأول فى صحبة الرجل ، حتى يغريك ما استبان لك من أمره بأن تطلب المزيد .

إذا جاز لنا أن نوجز وصف « أحمد أمين » فى كلمة ، قلنا : إنه « بَنَّاء » !

ولقد ملكت هواه نزعةُ البِناء والتشييد ، واولع بها أيَّما

وَلُوع ، فوقف عليها فكره وجهده ، تارة يزاول ويمارس ، وطورا يشرف ويَرْعى ، وحينا يحضّ ويدعو .

وخير ما يمتاز به هذا « البَنَّاء » فى نزعته ، أنه اجتماعى عصرىّ ، وأنه واقعىّ عملىّ ، إذا عَلَنَتْ له فكرة رسمها فى ذهنه أدق رسم ، وجعل لها خطة محكمة ، وقدّر لها كل ما عساه يكون من أقدار . ولا يكاد يمدّيده ليضع الحجر الأساسىّ لهذه الفكرة ، حتى يكون قد استوثق من الأمر غاية الاستيثاق ، وأحاطه بما يكفل له الرسوخ والشموخ ، فإذا البنيان تعلو دعائمه ، وإذا هو حصن للقرائح والعقول .

وعبقرية هذا « البَنَّاء » العظيم تتمثل فى أنه يجعل لنزعته طابعا من التجديد ، لا مغالاة فيه ولا انسلاخ . فهو إذا شيد التمس لأساس بنيانه عَتادا من كنوز الشرق وأمجاده ، ولكنه يقيم على هـــذا الأساس طِرازا تتوافر له كل مزايا التحضّر العصرى والعُمْران الحديث .

وهذا البَنَّاء » العظيم يرمى دائما من وراء سعيه إلى هدف مقصود ، ذلك أن له رسالة إصلاحية واضحة ، يبتغى بها تجديد العقلية العربية ، وإمدادَها بما يعينها على ملاحقة الزمان فى سيره الحثيث .

حول محْوَرِ هذه الرسالة الإصلاحية يدور فكر الرجل ، ولا يملّ أن يدور . وكأن هذا المحور مِغْزَلٌ يستمد منه الخيوط لينسُجَ منها أعماله ومساعيه ونفحات قلمه .

اقرأ كتابه «فجر الإسلام» وصِنْوَيْه: «الضُّحَى» و«الظُّهْر» تجده يؤرخ الحياة العقلية للمسلمين فى مواضى الحِقَب ، ولكنك تستطيع أن تلمح خلف مظاهر البحث والدرس لوامع تلك الروح الأصيلة ، روح الدعوة إلى الإصلاح ، والتوجيه إليه ، إذ هو يجلو لك منهاج الفكر العربىّ فى تطوره وسموه ، ويُمِيط الغبار عن معالمه ، ويريك الضوء من مصابيحه !

ولم يكن عَجَبا أن يُشْغَف الرجل بدراسة القادة الأعلام الذين هم طليعة النهضة فى الشرق الجديد ، وإن كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ليكشف لك أن الرجل يُعْنَى أكبر ما يُعْنى فى تأريخ أولئك القادة الأعلام وتصوير حياتهم بإبراز ما كان لهم من جهود فى سبيل النهوض بالعقلية الشرقية ، وفى نشر رسالة التجديدا

وإليك كتابه « فيضَ الخاطر » . لكأنه « فِلْم » سينمائى تتوالى فيه الصور والمشاهد ، « فِلْم » تنطبع عليه استجابة ذلك « البَنّاء » الداعى إلى الإصلاح لكل ما يلابسه فى الحياة والمجتمع . وإنها لصور شائقة ، ومشاهد رائعة ، تأنَسُ فيها قَبْسَةً من الفن فى

العرض والتعبير ، حتى لتدهش إذ تتجلى لك — فى شخصية هذا العالم الدارس — صِبْغَةُ الأديب الفنّان.

وأنتَ لو تصفحتَ مختلف الجوانب من شخصية «أحمد أمين» لطالعتْ عينُكَ صورةَ قاضٍ تتوضح فيه نزعة القضاء بأوفى مافيها من خلال الدقة والوزن والنظام ، وأكرم مافيها من خصال النزاهة والعدالة ويقظة الضمير .

إنه قاضٍ فى خاصّة شأنه مع نفسه ، قاضٍ فى حديث مجلسه ، قاضٍ فى الجامعة أستاذاً وعلى مكتبه رئيسَ عمـــل ، قاضٍ فى معاملاته مع الناس بين قريب وبعيد ، قاضٍ فيما يَجْرِى به قلمه من مباحث ودراسات وخواطر . . .

وقد عرفت الأقدار نزعته القضائية فى بواكيرها ، حين شَبَّ شبابُه ، فأرادت له أن يكون أحدَ قضاة الشرع ، يفصل فيما هنالك من خصومة ونزاع . . . ولكنه لم يمكث فى مَنْصِبِ القضاء طويلا ، فترك ذلك الميدان المحدود ، ليكون قاضياً طليقا لا تقف به قيود المهنة عند غاية ، ولبث فى دنياه ، على اختلاف مناصبه ، وتنوُّع مجالات نشاطه ، تملكه نزعة القضاء ، وتهيمن على فكره ما وسعها أن تهيمن .

وهذه النزعة القضائية قد وَسَمت حياة الرجل فى مناحيها

العقلية والاجتماعية بِسِمَةِ الاعتدال . . . فهو معتدل أبدا فى تقديراته وأحكامه ، معتدل أبدا فى علاقاته ووشائجه ، لا يجمح فى القسوة ، ولا يتراخىَ فى اللِّين . يحبّ حين يُحِبُّ هَوْناً مَّا ، ويُبغِض إذا أبغَضَ هَوْناًمَّا . أنْأى ما يكون عن التعصُّب والتحزّب ، آنفَ ما يكون للسَّرَف والتطرّف ، أميلَ ما يكون إلى الموادعة والحُسْنَىَ !

والعَجَب العاجب فى شخصية « أحمد أمين » أن نشأته قد اكتنفتْها كلُّ دواعى التحفظ ، من معتقدات راسخة ، وتقاليد صارمة ، وتعاليم جامدة . . ولكن فكره توهَّج والتمع وَسْط ذلك كله ، كما يتلألأ الجوهر النقىّ ، وخرج يلتمس الطلاقةَ فى الأفُق الرحيب . . . فإذا التمسنا الآن حريةَ الفكر بين القادة الأعلام ، ألفيناه مَنارَ الطريق .

العقاد والمازنى

هما اثنان :

أحدهما سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، متدفّع اليدين ، تلتمع عيناه حزما واعتزاما ، ويقتلع خطاه فى مسيره اقتلاعا .

وبجانبه شخص متطامن ، ضئيل الظل ، قريبٌ بعضُه من بعض ، تملأ منه عينيك فى لحظة ، ينقل خطاه كما يتوائب القَطا ، ويقلب فيما حوله نظرة يقظى تسبر الغور وتخترق الحُجُب .

فإذا راعك مرآهما جنبا إلى جنب فى الطريق ، فأقْسِمْ غير حانث أنك ترى « العقاد » و « المازنى » . . . ترى ذينك الصاحبين اللذين تَرَافَقَا فى دنيا الأدب وعالم الثقافة منذ عهد بعيد .

ولقد أُلِفَ الناس أن يتمثلوهما معـــا ، حتى إنهم إذا رأوا أحدهما وحده ، أعدُّوا أنفسهم لاستقبال صاحبه دون قصد . .

وذلك ما كان من أمرى معهما ، حين أزمعت أن أُجْرى القلم

فى الحديث عن واحد منهما ، فقد وثبتْ إلى ذهنى على الفور صورة الآخر لا تَرِيمه ، ولم تكن لى مَنْجاة عن جمعهما فى مقال .

وليس ذلك عجبا فى شأن « العقاد » و « المازنى » ، فقد جلت لنا صحائف التاريخ مشاهدَ من الأعلام مَثْنىَ مَثْنىَ . . .

وربما أثار الدهشة أن ثمـة فوارق بين كل اثنين جمع بينهما التاريخ ، وأن هذه الفوارق كانت خليقة أن تباعد بينهما كل المباعدة . ولكن الحق أن تلك الفوارق هى علة الاتصال ، وباعثة الاقتران ، إذ هى التى يتكامل بها الرفيقان ، فيؤلفان بهذا التكامل صورة تامة تعبر عن جانب كبير من حياة العصر الذى يعيشان فيه .

و « العقاد » و « المازنى » فى تزاملهما يتقاربان جدّ التقارب ، كما يتباعدان جدّ التباعد ، حتى لقد ينتهج أحدهما مسلكا عكسَ ما ينتهج صاحبه ، بيد أنهما على الرغم من كل ذلك صِنْوان أو توأمان لا تتَقَطَّع بينهما الأسباب .

تلازَما عصرَ الشباب ، حتى أدى بهما المطاف إلى أوج الرجولة ، وبلغا عصر المشيب ، فلبث كلاهما على حاله ، لم يلحقه تبديل ولا تحويل . . . « العقاد » فى شبابه شيخ نشيط ، وفى كهولته شابّ وقور . أما « المازنى » فهو فى شبابه وكهولته معا ذلك اللَّعوب الشَّغُوب ، صاحب النِّكات والمشاكسات ،

الساخر حتى من نفسه فى غير مبالاة . . .

فى حياتهما أَوْجُهُ شَبَهٍ عجائب :

مدرّسان يزاولان التعليم حينا من الدهر .

قارئان يَمْتَحَان من نَبْع واحد ، سواء فى الأدب العربى أو فى الأدب الإنجليزىّ .

شاعران يَخُطان للشعر نهجا طريفا غير مألوف .

ناقدان يثوران على القديم ، ويدعوان إلى الجديد .

كاتبان يَشْرَعان أوضاع « المقالة » العصرية فى أدبنا الحديث .

صحفيان يناضلان بالقلم عن مذاهب السياسة ومبادىء الأحزاب .

ورأس المشابهة بينهما هو نزعة التجديد ، فهما أبرز دعاة العصر إلى بعث الروح الأدبى على نحو يساير النهضات الأدبية فى العالم المتحضّر ، وإليهما يرجع كبير من الفضل فى أداء رسالة الفكر الغربىّ إلى الشرق فى هذه الحقبة .

ولم تكن دعوتهما إلى التجديد هدما لمأثور الأدب وقديم الثقافة ، بل كانت إمدادا للماضى بالحاضر ، ووصلا للقديم بالجديد ، وتزويدا للحياة الفكرية بدم قوىّ نقىّ . . . وذلك لأنهما كانا فى رحيب دراساتهما ، وواسع تحصيلهما ، مثلا طيبا للتمكن من أدب العربية ، والتبحّر فى ثقافة الشرق ، فقدّرا هـذا الأدب حق

قدره ، وعرفا لتلك الثقافة حقّها من التقويم .

* * *

لست أغلو فى القول بأن المرض الذى ألمّ « بالعقاد » فى مفتتح شبابه كان له الأثر الأعظم فى تكوين حياته وإبراز طابعه ، فقد اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال لميوله الأدبية كى تشبع نَهَمها إلى القراءة والدرس ، فى ذلك المَعْزِل . ومن ثم أقبل « العقاد » يعبّ من فنون البيان ومناحى الثقافة ما ساغ له أن يَعُبّ .

وكان من أثر الاحتجاز فى صومعة القراءة والدرس أن تمكنت فى خصائص « العقاد » مَلَكة التأمل فى الحقائق ، والتعمق فى الأفكار ، فاكتست فصوله تلك الصِّبغة ، من أسلوب رصين ، وتفكير دقيق ، وإحاطة شاملة .

وهذا المرض كان من أثره أيضا أن استقر فى قلب « العقاد » حب الحياة ، والتشبث بها ، والكفاح فى سبيلها ، فإنه لما واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقا بالحياة ، ورغبة فى التمتع بأطايبها ، فكرّم نفسه ونعّمها ما وسعه التكريم والتنعيم . وكان من عُقْبَى ذلك الظفر أنه أورثه زهوا وعزة ، وثقة بالنفس ، ورهافة شعور بالكرامة ، وأذكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة

والإصرار ، فتجلّى فى حياته وفى إنتاجه هذا اللون من القوة والصِّراع وصلابة القناة .

وأنت كذلك ترى الصرامة والجد والتوقر طابعاً جليّاً فى أدب « العقاد » : شعره وترسّله . الجملة عنده بنيان مرصوص ، والكلمة فى مقاله لها موقعها الذى لا موقع غيره يكفل لها الجلال والخَطَر ، فهو بحق إمام من أئمة العارفين بمقامات الكلام .

وقد لزمتْ « العقاد » عادة المطالعة ، حتى أصبحت له ديدنا لا يملك منه خلاصاً ، وعلى مرّ الأيام تأصّل ذلك فيه ، فصارت حياته حياة مكتبية محضة ، وقد أبى على نفسه أن يشوبها بما يخرجه عن تلك الوحدة ، فعاش فَرْداً فى صومعة القرائح والعقول !

تيسر « للعقاد » بذلك أن يعتصر زبدة الفكر من خير منابعه ، وأن يتزود بها ويتمثلها كما يتمثل الإنسان الغذاء ، فإذا هو دم يجرى فى الشرايين ليهب القوة والسلامة . فلا غرو أن تتّسم فصوله بسمات الدراسة والتمحيص وسعة الاطلاع .

وإذا كان لكل كاتب عيب يتوضح فى آثاره ، فالعيب الجلى فى كتب « العقاد » أنها لا تصلح أن تُزْجى وقت القارىء قبيل النوم حين يتكىء على وِساده ، حتى إن كتابه « سارة » — وهو قصة — يتعاصى على هذا الغرض ، لما فيه من تحليل عميق للنفس البشرية

يثير اليقظة ويشرّدُ عن العيون تَرْنيقَ المنام ، فإن انخدع قارىء بكتب « العقاد » فاتخذ أحدها للقراءة قبيل نومه لم يلبث أن يطيب له الأرق ، وأن يستبدل بمتعة الرقاد متعة الاستغراق فى عباب الفكر .

وأَجْمَعُ القول فى أدب « العقاد » أنه صورة صادقة لحياته وخُلقه ، فهو فيما يكتب كأنما ينقل لنا مشاهد صحيحة من حياته العقلية والنفسية فى تلك الصومعة التى أولاها كل تقديس .

* * *

أما صِنْوه « المازنى » فقد طبعتْ نفسه على دُعابة وَمرَح ، وقد تملَّى حياة اجتماعية حقة ، فتزوج وأَعْقَبَ ، واختلط بالمجتمع ، وشارك الناس . . . فكان من ذلك كله مِزاج طريف تميّز به أدبه ، فبدا قوىّ التماسح ، جميل التظرّف ، مشبوب النكتة . وإنه ليبلغ فى ذلك حدّ العربدة ، يتخذ ألواناً من المكايد ، ويمارس فنوناً من السخرية ، فلا يتمالك قارئه أن يجاريه فى تلك الخفة فيفترّ ثغره عن تضاحك موصول .

و « المازنى » كصنوه « العقاد » يصدق تعبيره عن شخصيته وحياته كل الصدق ، فإنك تجد فى أسلوبه سهولة المأخذ ، وفطرية المظهر ، وشَعْبِيَّة الوصف ، فيخيّل إليك أنك لستَ ببالغ منه بعيدَ غرض ، ولكنك إذ تتابع القراءة تَحْدُوًا بطلاوة العبارة ،

وسحر الحديث ، تتكشف لك دخائل من جوهر الحياة ، وحقائق من قلب المجتمع ، بُسِطَتْ فى هذا المعرض الأنيق الطريف ، لا وعورةَ ولا تعقيدَ ولا تفلسف !

ولغة « المازنى » تتفرّد بين لغات الكتاب بأنها تُطَوِّع البيان العربىَّ الأصيل لمطالب التعبير العصرىّ ، فى منحىً كأنه حديث مجلس ، وفكاهةُ سامر ؛ وبأنها كذلك تطوِّع اللهجة العامية الصميمة للتعبير الفصيح بين طوايا المقال ، ففيما يجرى به قلمه تنساب الكلمة الجزلة المختارة والكلمة العامية الطريفة ، فى نسق بديع ، تحسَبه بادىء بدء هينا ميسوراً ، وهو عند الممارسة تَقْصُر دونَه هِمَمُ الأقلام !

والقصة فى أدب « المازنى » عنصر له خطره ، ذلك لأنه يجلو فى « مقاله » تجارب الحياة ، وأوضاع المجتمع ، وشئون الناس ، عارضاً ذلك ألواحاً تتراءى فيها الشخصيات والمشاهد والأحداث . ومن ثمّ كان طبيعياً أن يكون « المازنى » — إلى جانب براعته فى فن « المقالة » — أخا جُهُودٍ موفّقة فى القصص الفنىّ الخالص ، وأن يكون قصصه مستودَعاً يزْخَر بتقلبات الحياة ، وما يدور فى المجتمع من أسباب .

* * *

و « المازنى » و « العقاد » كلاهما بليغ الأثر فى توجيه الثقافة ، وتجديد الأدب ، وإمداد الصحافة بمختلف الألوان . . .

وهما الآن يلتقيان فى المجمع اللغوىّ — مجمع الخالدِين — تسجيلا لهذا التكامل بين شخصيّتين لكل منهما منحى وأسلوب ، فلقد ضمهما المجمع « شاطراً ومشطوراً بينهما طازَج » من الأدب الرفيع !

فكرى أباظه

محام نابه ، فى مَيْعة الشباب ، دائب الهمة ، لا يعرف غير الطريق بين بيته فى « القاهرة » ومكتبه فى « الزقازيق » . . . وإن بوادر نشاطه وعمله لتبشر بأن سيكون له فى عالم المحاماة شأن عظيم !

وما كان له وهو شاب متحمّس يتوقد ذكاء وألمعية ألا يتابع النهضة الوطنية فى تقلباتها السياسية يوما بعد يوم .

وبينما هو وراء مكتبه يوما يتصفّح إضمامة قضية من قضاياه ، إذا بنظراته تقع على إحدى الصحف السيارة ، فيقرأ فيها نبأ ارتحال المعتمد البريطانى حينئذ عن « مصر » . .

فوجد نفسه وقتا يسرح مفكرا فى هذا النبإ ، وما له من ذيول ولواحق ، فأخذتْ أنامله تجرى دون وعى منه على ورقة من أوراق مكتبه الخاصة بمذكرات الدفاع .

وانبرى يكتب فى حميّة نادرة ، وسرعان ما اتسقت له سطور طوال . . .

وأخيرا رفع رأسه عن المكتب، فرأى أن يراعته قد نجحت رسالة غريبة إلى ذلك المعتمد الراحل، يشيِّعه فيها بكلمة طريفة تتميز بجسارة نفس، ومهارة عرض، وبلاغة حجة، وسلاسة تعبير . . . وهى فوق ذلك كله فَكِهَة الرُّوح، حلوة الدعابة، لينة المَلْمس !

فدهش الكاتب مما كتب، وساورته الحيرة، فراح يسائل نفسه: أبقلمِه حقا كتبَ هذه السطور ؟ وفيم فعل ؟ وما ذا ينتوى من وراء هذا الصنيع ؟

وانطلق يضحك ويُغْرِب فى الضحك، فما أسرع أن بدت له فتاة مكتبه الحسناء، وعينها تلتمع حيوية وفطنة . . .

بيد أن الشاب استرسل فى قهقهته، وقال يَسْدُّ فضول الفتاة المتسائلة :

إنى أضحك من عبث طفولة كان منى !

وتراجعت « السكرتيرة » إلى مستقرّها، وألقى المحامى الشاب بالورقة جانبا، واستأنف درس قضاياه، حتى فرغ منها، فغادر المكتب كشأنه كل يوم، لا يشغله شىء من أمر تلك الرسالة التى جرى بها قلمه منذ حين . . .

وأقبلت الفتاة على مكتب المحامى، ترتِّب أضابيره ومحتوياته،

فلم تكد تعثر على تلك الورقة حتى انكبت عليها تقرؤها، وألفت نفسها تتصايح، وهى تُرجّع الضحكات اللطاف !

فأسرع إليها خادم المكتب، يتبين جليّة الأمر ؛ فعاجلته بقولها :

إنى أضحك من عبث طفولة حمقاء !

فارتدّ الخادم إلى الباب، ووقفت الفتاة تردد النظر فى المقال، فعنّت لها فكرة ساورتها حينا، ثم ضربت جبهتها بكفّها، وهمهمت :

لم لا يكون ذلك ؟ من لم يخاطر لم يفعل شيئا !

وتقضّت أيام تابع فيها المحامى الشابّ عمله، كمألوف عادته، يستغرق فكرَه ما بين يديه من رُكام القضايا والخصومات.

وفى صبح يوم جعل يعبُر بعينه صحيفة « الأهرام » فراعه أن الرسالة التى كتبها إلى المعتمد البريطانىّ بأسلوب ساخر تحتل من الصحيفة أبرز مكان !

ففغر فاه من دهشة وتعجب، وأنكر ما ترى عينه، وجعل يتشكك ويتثبت، وانتهى به الأمر إلى يقين بأن الرسالة هى رسالته التى دبّجها قبل أيام . . . وها هوذا اسمه قد كُشف للملإ عن سرّه المستور !

وتلفت يمنة ويسرة ، وقد أحس بأن عيون الناس تقتحمه وتتفحصه ، وتهم بأن تناقشه فى ذلك العبث الذى جرى به قلمه ... فرمى بالصحيفة ، وانطلق إلى داره هربا ، وأزمع أن يحتبس فيها أياما متمارضا ، ليحتجب عن أعين الناس ، حتى عن أعين الأطباء !

إنه ليخشى أن تؤذى سمعه كلمات الهمز واللمز ، أو أن يتعقبه الشرطيون من رقباء الأمن وحماة النظام !

وبعد أن قضى فترة فى محبسه ، وخف عن كاهله ذلك الكابوس ، خرج إلى مكتبه حذرا يترقب ، وقد كسا وجهه شحوب . . . وما برح يفكر ويتساءل :

أى شيطان أبلغ « الأهرام » رسالته ؟

ودار بأسئلته بين أعوان مكتبه ، يتقصى ويتعرف ، وهو ثائر مُحْنَق ، فلم يهتد إلى جواب يشفى الغليل .

وما إن جلس إلى المكتب يرغب فى استئناف الدرس والإعداد لإضمامات القضايا ، حتى طالعته رِزْمة من رسائل وبرقيات مضى يفكها ، وإذا هى تحفل بتحيات وتهانىء على المقال الذى أطرف به القراء ، ذلك الذى سماه : « عبث أطفال » !

وانصرم الوقت ، وهو يعرض هذه الرسائل ، تزيغ عيناه بين رُكامها . . .

وأنهى إليه الخادم أن زوّارا ينتظرون إذنه ، فنهض يهم ، وقد قرّ فى ذهنه أنهم من عملاء مكتبه ، وطلاب توكيله .

وما كاد يلقاهم محييا محتفيا ، حتى استبان له أنهم « رسائل حية » قَدِمَتْ تزجى إليه جديدا من تهانىء وتحيات !

وترادفت عليه أيام ، وهو بين مصدّق ومكذّب لهذه الحال الطارئة التى غَشِيَتْه .

وبعد حين ألفى نفسه وقد استيقظت بين جنبيه تلك الرغبة الكمينة فى أن يدبّج سطورا من ذلك البيان الساخر ، على نَمَط رسالته إلى معتمد الإنجليز .

ويوما جلس يكتب مقاله الثانى ، وما كاد يفرغ منه ، حتى أقبلت عليه فتاة المكتب فى تردّد وإحجام ، وهى خافضة البصر ، تفرك إحدى يديها بالأخرى ، فرفع إليها هامته قائلا :

ما بِكِ ؟

فقالت متلعثمة :

ضاق بالسرّ صدرى . . . إنى لمفضية به إليك ، وليكن حكمك ما تشاء .

فلمعت عيناه تطلعا وحيرة ، وسأل :

أىّ سرّ تَعنين؟

فقالت فى لهجة استغفار وندم :

سرّ المقال . . . أنا التى بعثت به إلى « الأهرام » . . . ثق أن نيتى كانت بيضاء !

فأخذ الشابّ يعبث بالقلم بين أنامله ، وهو ينظر إليها بسّام ثغر ، ثم قال لها هادئ الصوت :

لا عليكِ !

ومدّ إليها يده بالمقال الجديد ، قائلا :

افعلى به ما فعلت بسابقه . . . إنى بك متيمّن مستبشر !

وسارت به الأيام ، تتوارد عليه الصحف ، حاملة له بين صفحاتها فيض قريحته فى هالة من الحفاوة والإعجاب .

فأحسّ الرضا عن نفسه ، وعن فتاة مكتبه الحسناء ، ولم يعد يرى فيما يثنى به الناس عليه إسرافاً أو مغالاة .

واطمأن أخيراً إلى أن الأقدار قد اصطفته لتُلْقِى به فى ذلك الحَشْد من أدباء الصحافة وحملة الأقلام . . .

وعلى مرّ الأيام تخلّق فى مكتب المحاماة مكتب آخر ، جعل ينمو ويتسع ، حاملا رسالة الصحفىّ وقلم الأديب !

وأصبح لذلك الشاب النابه حياتان ، تتقاسمان نشاطه ،

وتتنافسان فى اجتذابه ، فنظر إليهما نظرة الزوج إلى ضرتين حسناوين ، ليس له إلى التخلى عن إحداهما سبيل .

ولم يملك إلا أن يقول لهما مبتسماً :

إنى بين أيديكما . . فاصنعا بى ماتريدان !

إن الله لأكرم من أن يدع « فكرى » للمحاماة وحدها . . .

بين ظهرانَينا عشرات من « فكرى » المحامى ، ولكن ليس لنا من « فكرى » أديب الصحافة الفنان إلا رجل فرد !

أفليس من الظلم أن تأسره المحاماة ، فتحرمنا ذلك الأسلوب الطلىّ الذى جلاه صاحبه وأبدع فيه كل الإبداع ؟ !

وربما كان من الدقة أن نشير إلى أن هذا الأسلوب ظهرت لوامعه بادىء بدء فى مقالات كانت تحمل اسم « الغزالى أباظة » ولعل معالى الأستاذ « إبرهيم دسوقى أباظة باشا » أدرى الناس بصاحب ذلك الإمضاء !

فهذا الأسلوب وليد البيت الأباظىّ ، تعهده « فكرى » وخلّص له ، وتفنن فيه حتى بلغ هذا المبلغ من الروعة والإمتاع .

مزية هذا الأسلوب هى المرونة والطواعية للتعبير عن دقائق الحياة الاجتماعية والعراك السياسىّ فى شتى النواحى والأوضاع .

تعبير كأنه حديث عذب ، يصغى إليه السامع ، فكأنما يترشّف

من شراب منعش ، لا يفضى إلى سُكْر ، بل يُشيع فى النفس لطائف النشوة والمراح . . .

تعبير الطبيب البارع حين يؤلف بين العقاقير الناجعة والشراب الحلو ، فيخرج منها مزاجاً يجمع بين الفائدة وطِيبِ المَذَاق .

تعبير تتجلى فيه أشتات من المزايا :

عفة فى اللفظ ، فلا موضع لكلمة نابية ، وسخرية فى النقد لا يترك مِبْضَعُها جُرْحا يَدْمَى ، وجرأة فى الحق تبعثها الصراحة والغيرة ويقظة الضمير .

إن « فكرى » ليغضب أحيانا غضبة النَّمِر ، وقد يرفع كفه ليصفع بها الصفعة القاضية ، ولكن سرعان ماتحُول الصفعة فى يده مُزْحَة ودعابة تؤلم ولكنها لا تثير الحَفِيظة ولا تَهِيج الغيظ .

لسنا نتزيّد فى القول ، إذ نصف أسلوب « فكرى » بأنه « الأسلوب الدبلوماسى » . وإنه ليمثل فى الصحافة ذلك السفير اللبق الذى يحقق أغراض دولته ويرعى مصالحها ، دون أن ينتضى سيفاً أو يصوِّب مِدْفعاً . . . وإنما يبلغ أهدافه بأفانين من مهارة فى الحديث ، ولباقة فى تصريف الكلام !

ولا ريب أن أسلوب « فكرى » قد أثار فى أذهان جمهرة من كتاب الصحافة التطلع إلى أساليب جديدة من التعبير الشائق

الخلاب ، فإليه فضل السبق والإثارة فيما يتجلى فى الأسلوب الصحفى على وجه عام من طراوة ولباقة وتجديد فى الوصف والعرض والتعليق . . .

سَـلِمَ « فـكرى » من آفتين :

آفة المناصب الحـكومية .

وآفة الخصومات الحزبية .

وقد وفّرت له سلامتُه من الآفة الأولى حريةً فى النظر والوزن والتقدير ، وَوَفَّرَتْ له سلامته من الآفة الأخرى جسارة على مواجهة الزعماء جميعاً بما يؤمن به ، دون تقيّد أو مصانعة أو خشية مَـلاَم .

واليوم وقد تسنَّم « فـكرى » تلك المـكانة بين حاشية صاحبة الجلالة الصحافة ، نراه لم يجحد ماكان من صنيع فتاة مـكتبه يوم أفلحت فى التجسس عليه ، وجرؤت على أن تقوم بمهمتها خير قيام ، إذْ استطاعت أن تمهد طريقه الصحفىّ فى خطوته الأولى . فها هى ذى الآن بجانبه تشاركه فيما يعمل . . . ولفرط اعتزازه بها ألزمها أن تخفى وجهها الصبيح تحت قناع من أقنعة التنكّر ، فلا يعرف الناس منها إلا اسم : « الجاسوسة الحسناء » !

أنطون الجميل

حينما أخذتُ القلم لأكتب كلمات أصوّر بها شخصية أديب الصحافة الأكبر « أنطون الجميّل » طالعنى على الفور رسمان لرجلين من أعلام الأدب العالمىّ ، هما : « الفريد دى موسيه » الفرنسىّ ؛ و « أوسكار وايلد » الإنجليزى .

فلبثت هنيهة أفكر .

أية مَشَابهَ بين أديبنا العربىّ وهذين الأديبين الأوربيين ؟

يدرك المرء أحيانا ببصيرته أول وهلة حقائق من الحياة لم يكن ليدركها بإنعام النظر ، فإذا راح يمتحن ذلك الإدراك الفطرىّ البدَهىّ ، ويعرضه على موازين العقل وأقيسة المنطق ، تجلى له فى الغالب صدق البصيرة وقدرتها على اكتناه سرائر الأشياء !

أول ما يروعك من صورة الأديبين الأوربيين ظاهرتان ، هما : الشاعرية ، والأناقة . . . تتجليان فيما يبدو عليهما من سمات وملامح ، وفيما يُؤثران من شارة وزىّ .

فإذا ما عدلتَ ببصرك إلى صورة « أنطون الجميل » توضحت لك هاتان الظاهرتان غاية التوضّح .

وإنك إذ تساير مراحل حياته ، منذ عرفتْه « مصر » قبل عشرات من السنين إلى هذا اليوم ، تجد هاتين الخلتين تطبعان حياته بطابعهما الأصيل ، وكلما تقدمت به مراحل الحياة ألفيتَ جذورهما تتأثّل ، وفروعهما تتسامق وتترعرع !

ولعلنا لو عرّفنا « أنطون الجميّل » فى مَعْلَمَة الأدب العربيّ بأنه : « أناقة وشاعرية » لكنا بذلك قد أجملنا له تعريفا يجمع بين الصدق والإبانة .

للرجل خصائص أخرى لها خطرها ، ولكن هاتين الخلتين أظهر ما فيه ، بل إنه يكاد يكون أكثر الناس اختصاصا بهما .

شاعرية « أنطون الجميّل » لا تتمثل فى صوغ القصيد ، فما أحسبه قد عنّى نفسه ببناء بيت ، ولكن له مع ذلك قصيدة فريدة تَرِفُّ فيها الشاعرية أجمل رفيف ، تلك القصيدة هى حياته ! .

كانت براعة الاستهلال فى هذه القصيدة - يوم بزغ الرجل فى « مصر » - هى وَلُوعه بالشعراء ، يتصل بهم ، ويقبل على مجالسهم ، ويعقد بينه وبينهم أواصر الألفة والودّ .

فى هذا العهد كان لأستاذ الشعر « إسماعيل صبرى » نَدوة تمثّل مجمع الأدباء خير تمثيل ، فما أسرع أن ظفرت هذه الندوة « بأنطون الجميّل » ، وأصبح كوكباً لامعاً فى أفقها الكريم . . .

بين أرجاء هذه الندوة تنفّست شاعرية الرجل فى نشوة وارتياح ، ولكنها سمت إلى أن تعبر عن طموحها ، فتجلى ذلك التعبير فى إخراجه مجلة « الزهور » ، وحسبك من اسمها عنواناً على تلك الشاعرية التى يفيض بها وجدانه الرّهيف ، فالزهرة للشاعر مهوى نفسه ومَجْلَى أنسه ، ومَرَادُ إلهامه !

سنوات أربع كانت هى عمر مجلة « الزهور » ، وكذلك الزهر قصيرٌ عمرُهُ ! . . . ويومئذ لم تكن الصحف والمجلات إلا أضاميم أوراق سُوِّدت بأخلاط من منظوم ومنثور ، فتنضّرت مجلة « الزهور » تسترعى بطرافتها أنظار القارئين . . .

كانت وثبة جديدة فى صحافة الأدب : أناقة فى الطبع ، جِدّة فى الإخراج والتنسيق ، انتقاء للرسوم والصور ، حتى إن حجوم الحروف وأوضاعها لم يفتها من العناية نصيب . . . فإذا المقال يجتذبك بخِلابة منظره ، قبل أن يمتعك بجودة مخبره ، وإذا أنت مفتون بهذا التفنن فى تجلية الروائع العربية عصرية الروح على نمط رفيع . . .

تلاقت فى ميدان « الزهور » أقلام النابغين فى الأدب ، فأضحت

المجلة جامعة لأدباء العروبة تصل بينهم على تباعد المواطن والأصقاع .

على أن المجلة تميزت بطابع الشعر. فتألقت فيها عيون القصائد، وتناثرت روائع الدراسات للشعراء . . .

وإن ماعُنِيَ به صاحب المجلة من تجوّد فى الاختيار ، ودقة فى التميز، قد يسّر له — فيما بعد — أن يقتطف من شعر « الزهور» طاقة عَطِرة سماها « مختارات الزهور » هى فى الحق أول مجموعة شاملة لأنماط الشعر العربىّ فى بواكير نهوضه الحديث ، حاوية لضرب من التعريف بالشعراء فى أسلوب وصفىّ جديد .

قرأنا فى هذه المجموعة « لإسماعيل صبرى » و « شوقى » و « حافظ » و « محرم » ومن إليهم . وإلى جانبهم قرأنا « لخليل مطران» و « بشارة الخورى » و « عمون » و « الملاط » وكثير غيرهم ، فاجتلينا صفحات مشرقة ، وألواحاً فنية ، هى نخبة تفصح عن ذوق مصفّى وتميز دقيق .

لا مرية أن « لأنطون الجميّل » موهبة أصيلة فى تذوّق الجمال وصدق الحكم على الجيد من آثار الفن . . .

وإنه ليشبه فى هذه الموهبة أولئك الخبراء الفنيين الذين أُوتوا مواهب عجيبة من دقة الحس ورهافة الذوق وإصابة الرأى ،

لا يعنيهم تذوق الأشياء، والحكم على مقدار جودتها . . . فتراهم في الشراب وفي التبغ مثلا أئمة حكاماً ، تلجأ إليهم المصانع مسترشدة بما يصدرون من أحكام فيما يتذوقون من خَلِيطِ لفافة أو مِزَاجِ شراب !

ليس « أنطون الجميّل » إلا واحداً من هؤلاء الذوّاقين الحكام الذين سخت عليهم الطبيعة بموهبة التخيّر الصائب ، والتقدير الصحيح ..

الشاعرية والأناقة تلازمان « أنطون الجميّل » في ملبسه ، وفي حديثه ، وفيما يجرى به قلمه . . .

مقاله في أي موضوع يطرقه قصيدة أنيقة خلاّبة الرُّواءِ ، ينتقي ألفاظها انتقاء البستانيّ للناضر من الزهر ، ويُنَسِّقُ جملها تنسيق فنان فيّاض العاطفة بحبّ الجمال .

ومهما يكن من دقة الموضوع الذي يتناوله ، ومبلغ جِدّه وخطره ، فإنك تحسّ شاعرية المعاني والأفكار تَقْطُر رقة أو تَتَلَظَّى حَمِيَّة ، خالصةً أبدا من وُعورة أو جفاء ، وإنك تراه يصبّ آراءه في فِقَرٍ أَدْنَى إلى أبيات القصيد .

فإن مددت عينك إلى مؤلفات « أنطون الجميّل » وجدت الرجل كما هو ، لم يتعدّ طبعه الأصيل ، دراسات للشعراء ؛ من مثل

« شوقى » و « إسماعيل صبرى » و « ولى الدين يكن » ، هو فيها شاعر أنيق يشدو ويتغنى ويوقظ فطنتك لتتعرف مواطن الجمال .

ومرة أراد أن يقتحم ميدان الحياة العملية فى تأليفه ، بعيداً عن آفاق الخيال ، فانتخب مؤلفاً أجنبياً نقله إلى العربية ، وإذا الشاعرية الغلابة فى طبع « أنطون الجميّل » تأسره فى هذا الاختيار ، وإذا الكتاب هو « الفتاة والبيت » . . .

صفحات تثير فى النفس حبّ الجمال ، وتطبعها على الأناقة ، وتربى فيها ملكة الذوق السليم . . . فكأنه بهذا الكتاب يعمل على نشر رسالة الشاعر الأنيق !

فى هذا الكتاب روائع من جديد الألفاظ ، ورشيق الفِقَر ، فأنت إذ تمضى فى قراءته كأنك تساير جدولا رقراقاً توشّيه الرياحين . . .

من الظلم أن نقصر الحديث عن « أنطون الجميّل » على شاعريته الأنيقة ، فثمة شِيمَة لها أثرها البارز فى حياته ، تلك هى المرونة والطواعية . . . ولكن أليست هذه الشيمة إحدى « منتجات » الشاعرية والأناقة ؟

تمتاز حياة الرجل بتلك المرونة التى كانت معوانا له على الفوز والتبريز . . . ولعل مرونته العجيبة هى التى أعانته على أن يظل رهين

الوظيفة الحكومية أكثر من خمسة عشر عاما دون أن تصبّه فى قالبها المعروف . . . ويخيل إلىّ أن هذه الوظيفة كانت كلما همت أن ترفع يدها بخاتمها تريد أن تَهْوِىَ إليه لتَطْبَعه لم يلبث أن ينحرف عنها ويَزِيغ، تؤازره تلك المرونة التى بفضلها يتسنَّى له أن يكون على وَفْق ما يريد .

خرج « أنطون الجميل » من الوظيفة لم يلحقه منها تَبِعات ، خرج محتفظاً بشخصيته ، فإذا هو كما هو ذلك الشاعر الأنيق اللّبق، ذو النفس الحرّة ، والرأى الصريح ، والأفق الرحيب .

ولما تسنم مكانه من « الأهرام » تجلت فيه شيمة المرونة فى أسمى صورها ، إذ صادفت فى تلك البيئة مجالها الزاخر .

خمسة عشر عاما أخرى ، مرت به فى هذا العمل الصحفىّ ، وهو يقف دائما موقف المحايد البصير ، يصرف المآزق فى لباقة وحنكة ، ويجنب حياده الدقيق طوارئ الأحداث وشوائب الأهواء .

ليس حياد الرجل فراراً من جهاد فى سبيل الخدمة العامة ، يُغْرِيه به فقدان المبالاة ، وإنما حياده ترفع حين يجب الترفع عن الخوض فى معارك حزبية ليست وثيقة الأعراق بالصالح العام ،

وأحياناً يتمثل هذا الحياد فى إفساحه المجال للآراء المتنازعة فى حرية وطلاقة ، رغبة فى التنوير والتبصير .

إذا التطمت خصومات الزعماء والساسة ، وتدسست نزعات النفوس مُقَنَّعة بِلَبوس الصالح العام ، ألفيتَ « أنطون الجميّل » يُطرِق إطراقَةَ الكريم ، ويغضى إغضاءَ من يبغى سَتْرَ هذه المشاحنات وتقريب شُقَّة الخلاف .

فإن جَدّ الجِدّ ، وكان الصالح العام سيّد الموقف ، رأيت الليث ينبعث من عرينه ، وسَمِعْتَه يطلق زئيره ، جاهرا بالرأى فى غيرة وإخلاص ، دون تجريح أو تسفيه أو تهوُّر . . .

واحتواه مجلس الشيوخ ، فكان موقفه فيه مَثِيلَ موقفه فى « الأهرام » : أذُن تتصامَمُ حين تتهاتر منافسات الأحزاب والأشخاص ، فإن أُخِذَتْ عليه المسالك ، وضاق بالصمت ، وألفىَ نفسه فى المعمعة دون اختيار ، أنجدَه من حضور الذهن وسرعة الخاطر مَدد ، فتراه ينسلُّ من المأزق فى تحيُّل ولباقة ، وله فى هذا الباب طرائفُ تُؤْثَر وتُرْوى .

ما كان « لأنطون الجميّل » أن يتملك ناصية الحياد النبيل ، وأن يصبر عليه ، لو لم تجتمع له خلال من رحابة الصدر ، وكرم النفس ، والزهد فى صغائر الشهوات التى تحفز صاحبها إلى الاستطالة والحقد والجحود . . .

وليس بِدْعا أن يكون « أنطون الجميّل » هو « الصديق المشترك الأعظم » لسائر الساسة والقادة وأهل الرأى ، فإن فيه أكرم خلة يلتمسها الصديق فى الصديق ، تلك هى خلة الوفاء . . . وطالما آنَسْنَا مظاهر هذه الخلة فى مناسبات كثيرة يتجلى بها « الأهرام » .

وإن وفاء « أنطون الجميّل » ليسبغ ظله على الأحداث الماضية ، والذكريات العَزيزة ، فهى تهزّ قلبه ، وتجد من أريحيته تلبية واستجابة . . .

شخصية « أنطون الجميّل » لاغنى عنها فى الميدان السياسىّ ، وموقف « الأهرام » لا بدَّ منه فى الميدان الصحفىّ ، ولكننا لا ننتظر أن تكون شخصياتنا السياسية قاطبة على غِرار شخصية ذلك المحايد النبيل ، وليس بجائز أن تصير صحفنا كلها على نحو تلك الصحيفة الناجية من شُوَاظ المنافسات والخصومات ، فهذا وذلك لا يوائم منطق الحياة وطبيعة البشر . . . « ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ! .

بيد أن « الأهرام » وقائدها الأمين ، كلاهما عنصر جوهرىّ ضرورىّ للسياسة وللصحافة ، حتى لا يكون الميدان كله مُنْهَبةً للتطاحن والعِراك !

الشيخ "أبو العيون"

سمعتُ بالشيخ « أبي العيون » قبل أن أقرأ له ، وقرأت له قبل أن أراه، فتمثّل لى شُرْطيا أَقْتَمَ عَبُوسا ممسكا بِهراوة ضخمة ، يطارد بها الرذائل ويطهّر منها الأرض ، فى قساوة وجراءة واقتحام .. ولذلك كنت أستشعر له رهبة يخالطها توقير وإجلال .

وَظَلِلْتُ أخشى أن تهيِّئ لى المصادفات فرصة لقائه أو التحدّث إليه ، حتى لا أضيق بما يضيق به جليس المتزمتين الذين لا همّ لهم إلا الإلحاح على الجلساء بالوعظ والإرشاد !

ولكن حدث بعد ذلك أن وصلت بينى وبين الرجل أسباب التعارُف ، فراعنى منه أول وهلة: وداعة فى الشمائل، ودماثة فى الخلق وموفور من الكياسة والمرونة .

وتتابع لقائى إياه ، فتطاير من مخيِّلتى شبح ذلك الشرطىّ الأقتَمِ العَبُوس ذى الهِراوة الضخمة ، وحل محله ذلك الشيخ

« الجنتلمان » الذى أُفْعِم ظَرفا ورقة حاشية ، فعجبت لتلك المفارقة البالغة بين شخصية « أبى العيون » جليسا ومتحدثا ، وبين دعوته كاتبا وصوته فى المكافحة والصِّيال .

وكدت أنكر عينى وسائر حواسى ، واستهوانى الأمر ، فعمدت إلى استجلاء خوافيه ، فانكشف لى السرّ المكنون ، ووضح لى أن إهاب الشيخ « أبى العيون » تنطوى فيه شخصيتان تكاد كل منهما تستقل بنفسها تمام الاستقلال .

عرفت أن الشرطىّ الأقتم العبوس ذا الهراوة الضخمة يؤدى عمله صادرا عن عقيدة وطيدة وعاطفة متضرّمة ، فلا تصنُّع ثَمَّة ولا دِهان !

ولكنى عرفت كذلك أن « الجنتلمان » الأنيس إنما يستمدّ أنسه وعذوبة شيمته من طوية نقية وشعور رَهِيف ، وذوق حَضَرِىّ رفيع .

وإن هاتين الشخصيتين لتسيران معا جنبا إلى جنب ، وربما طغتْ شخصية « الجنتلمان » على شخصية الشرطىّ ، فأنت تقرأ مقالات الشيخ العنيفة ، فتستشف تحت سطورها لطفا وحنانا فى التعبير والتصوير ، لا تقتحم عينك كلمة عوراء ، أو جملة حُوشِيَّة ، أو تعبيرا تتراءى فيه آثار الطَّشْفِر والناب !

نجم الشيخ « أبو العيون » فى بيت دين وتقوى ، يسوده التحفظ والورع والأوضاع المأثورة فى العادات والأخلاق ... بيت ارتدى بعض كبرائه جلباب الولاية ، وشاعت عنهم ضروب من الكرامات ، فاعتقدهم الناس ، وأقسموا بهم غيرَ حانثين .

ومن ثَمَّ استقرت فى نفس الشيخ منذ نعومة أظفاره هذه النزعة الغلابة فى الذَّبِّ عن محارِم الدين وحياطة شعائره .

واستقبل « الأزهر » ذلك الفتى المتديِّن ، فاغتذت تلك النزعة بغذاء آتاها النموَّ والزكاء .

وتنقل بعد ذلك فى وظائف التعليم ، تارة فى المدارس ، وتارة فى « الأزهر » ، حتى أدّى به المَطَاف إلى « الإسكندرية » شيخا لعلمائها ... ثم استردّه « الأزهر » ثانية ليتولى فيه مَنْصِبا من عليَا مناصبه .

وما برح فى كل تلك المراحل يتنفس فى أجواء دينية محافظة ، تُظِلُّها أسباب التزمت بالورع والتقوى .

ولكن — وفى « لكن » هذه سر الأسرار — حينما كان شيخنا رَطْب العود ، يرتشف من علوم « الأزهر » العربية ، أحسَّ ميلا فطريا إلى الأدب وما إليه من منظوم ومنثور ، وطرائف وأسمار ، وألفى نفسه يمنح وقته الأطول للمطالعات الأدبية

فى دواوين الشعر وأسفار البيان ، فصفا ذوقه الفنىّ ، وشاعت الرقة فى شمائله ، وتجلت له مواهب حافلة ، فإذا قلمه يجرى على الصحائف بفاخر الكلام ، ولقيتْ مقالاته إقبالا من القراء ، وتحيّة من النقاد ، لما آنسوه فيها من سلاسة أسلوب ، وحلاوة لفظ ، ونصاعة فكر

فانتضى قلمه يواصل التدبيج ، وأصبح فى عداد الموسومين بالأدب من الكتاب ، أولئك الذين يحسنون الإبانة ، كما يحسنون تذوّق البيان . . .

وشبّ شبابُه مقبلا على مجالس الأدباء وأندية الشعراء ، إذا سمع بأديب أو شاعر هُرِع إليه ، يتصل به ، ويُساقيه الودّ . . .

وانفسح له مجال المطالعة والكتابة ، فأحس كما يحس كل أديب صادق الموهبة ، بنزعة إلى الحرية والتنفّس فى آفاق رحاب . .

وهنا تجلت شخصيته الثانية ، وتم له تكوينها .

ومن ثم نَشِبَ ذلك الصراع بين نزعتين : نزعة التحفظ ، ونزعة التحرّر ، أو — على الأصح — قام العراك بين عاطفتين : عاطفة الشيخ المتديّن ، وعاطفة الأديب الفنّان !

وكانت الوثبة الوطنية . . . فاتخذت من « الأزهر » مرتعها الخصيب ، وما كان للأزهرىّ البارّ سليل الشيوخ البررة أن يحجم

عن الضرب فى الميدان ، فألفيناه سبّاقا إلى الاقتحام ، وما لبث أن كان زعيما بين أقطاب الحركة ، ينفخ فى روحها بقلمه وصوته وسعيه ، مُرْخِصاً فى سبيلها كل مجهود ، واقفا بجانب الطليعة من القـــادة ، أمثال الشيخين « الزنكلونى » و « القاياتى » والقمص « سرجيوس » !

وفى هذا الجهاد الوطنى انفسح أمام الشيخ « أبى العيون » مجال العمل ، فخرج من تلك الدائرة الضيقة : دائرة التعليم والتدريس إلى دائرة فسيحة صاخبة قوية الصلات بالمجتمع المصرّى وطوائف الناس فيه .

وما أسرع أن ظهرت للشيخ مواهب من المرونة والكياسة ، وحسن تصريف الأمور ، والتوفيق بين وجهات النظر فى مواقف حَرجة ، ومآزق تزِلُّ فيها الأقدام . . .

خاض الشيخ هذه المعارك فى ميدان الجهاد الوطنى ، فكانت خير متنفَّس له عما يعتلج بين جنبيه من أحاسيس ومشاعر مكظومة مكبوتة تضيق بها بِيئَة التحفظ ، ولا تتسع لها حَلْقَة الدرس . . .

وأَبْلى فى عهد الثورة أحسن البلاء ، ولكن ماهى إلا أعوام ، حتى ألفى تلك الثورة التى كانت شعلة واحدة قد تفرقت شِيَعاً

وأحزابا، فأحس مرارة الخيبة، ولكنه استمسك بموقفه، وصان مبدأه عن التنقل بين هؤلاء وهؤلاء.

ولم يكن بدّ من أن يبحث الشيخ عن مُتَنَفَّسٍ لتلك المشاعر المحتدمة التي تأبى إلا الانبعاث.

ويومًا قرأ في إحدى الصحف نبأ قسّيس في بلد أجنبيّ يرفع صوته مستنكرا قيام البِغَاء.

قسيس يناهض البِغَاء في بلد أوربيّ ؟!

وتلفت الشيخ حوله، وهو في بلد إسلاميّ صميم، يتساءل:

أَئِمَّةَ شيخ يماثل هذا القسّيس في دعوته الصالحة ؟

وبلغ منه العَجَب كل مبلغ ... كيف فات أهلَ الرأي ورجالَ الدين وولاةَ الأمور أن «مصر» المسلمة شعبا وحكومة ترخّص رسميا بمزاولة البِغاء، على حين أن الإسلام يستنكر الزنا، ويَحُدُّ له أقسى الحُدود ؟

واهتز في مجلسه اهتزازة عنيفة، وأحسّ من قرارة نفسه صوتا يعلو مُهِيبا به أن يَهُبَّ، مجاهدا في سبيل الفضيلة.

أليس هو سليل الأولياء الصلحاء ممن يقسم الناس بهم في غير حِنْث ؟

أَوَليس هو لذلك أحق من غيره برفع راية الحرب على البغاء ؟

إنه يتقد حمية ويقظة ، وإنه لقادر على أن يثير بقلمه رواقد الهمم ، ويبتعث غَيْرَة الضمائر .

وتمثل له فى هذه اللحظة ما اضطلع به من جهد فى الثورة الوطنية ، إذ كان فيها لسانَ صدق ، وداعيةَ حق .

كيف لا يستأنف جهاده فى هذا الميدان الدينى ؟

إن الخُلُق القويم والفضيلة الكاملة دِعَامُ الأمم ، فلا قيامة لأمة تسرى فى كيانها الخلق جرائيم الرذيلة .

وجلس يكتب مقاله فى البِغاء ، وأخذ يفكر فى عناصر موضوعه ، وراعه أنه لا يعلم من تفاصيله ما فيه غَنَاء . . . ولكنه ألفىَ القلم يمضى وثّابا على القرطاس ، وإذا هو مهتاج النفس ، جَيّاش العاطفة ، لا تُعْيِيه المعانى والأفكار .

ولما أتم المقال ، جلس يقرؤه لنفسه ، فعَجِب مما سطّر . . إنه حملة شعواء على البِغاء ، وإنه ليعالج الموضوع بوحى من العاطفة والعقيدة أكثر مما يعالجه بأقيسة العقل والمنطق . .

لَمْ يكن فى هذا المقال إلا شاعرا مغرقا فى الشاعرية !

وأرسل مقاله إلى « الأهرام » ، ووقف يحاور نفسه مبتسما : أتلقىَ هذه الفورة العاطفية أذنا صاغية ؟ أم تذهب صيحة فى واد ؟

واطمأنت نفسه أخيرا بأنه مهما يكن من أمر المقالة ومايكون من أثرها ، فقد أدَّى بها واجبا محتوما ، ووضع بها عن ضميره عبئا ثقيلا !

وتنفس أنفاس هدوء وارتياح .

كانت « مصر » يومئذ حديثة عهد بإعلان الاستقلال ، وقيام الدستور وبدء الحياة النيابية . . . كانت كالسجين الذى أفلت من محبسه ، وحطم أغلاله ، وانطلق فى أجواء حرية وتطلع ، تتضرم بين جنبيه رغبات وآمال ، وتتمثل لعينيه أخيلة المستقبل الجديد ، وما يكون فيه من إنشاء وتعمير . . .

كانت « مصر » آنئذ يتأجج فيها النشاط ، ويستبدّ بها النَّهَم إلى الإصلاح والتجديد ! فلم يكن يفوتها أية دعوة أو نداء فيه صالح الوطن ونفع الأمة ، ولا سيما ما كان من هذه الدعوات والهتافات يهدف إلى تركيز القومية ، وإبراز الشخصية واضحة مستقلة خالصة من الشوائب . . .

فما إن سرت فى الجمهور مقالة الشيخ ، حتى أَذِنَ لها ، وتأثر بها ، وتحمّس لفكرتها . . إنها صيحةٌ يشُنُّها الشيخ على الانحلال الخلقىّ الذى هو بلا ريب من مخلفات عهد الخضوع والخنوع . . . فكيف ترضى الأمة الحرة لنفسها أن يلحَق بأذيالها هذا الوَضَر ؟!

انهالت الرسائل على « الأهرام » تأييداً للفكرة ، أو بحثاً فيها ، وتعليقاً عليها . . . وشعرت « الأهرام » بأن قراءها يتقاضونها المزيد فى هذا الموضوع ، ففسحت صدرها للكتاب ، ورغبت إلى الشيخ فى أن يتابع صيحته ، وأن يكون على مَرْقَبَةٍ من معقِّباتها بين الباحثين والنقاد .

وتذوَّق الشيخ لذة الظفر بأن صيحته لم تذهب بَدَداً ، وشمّر للأمر ، وأعدّ العدّة لمواصلة البحث والدرس على أساس من حقائق العلم وظواهر الاجتماع . . .

فانبرى يتعمق فى الموضوع ، ويتعرف جوانبه ، ويسأل أهل الذكر ، ويَسْتَكْنِه أثر البغاء فى الصحة والاقتصاد وشتى النواحى النفسية والخلقية ، وكان كلما استوفى بحثه فى إحدى النِّقَاط دبَّج مقاله فيه ، وانتقل إلى البحث فى نقطة أخرى ، والجمهور الظامىء ينهلُ من ذلك المَعِين ، لا يَرْوَى له غليل !

مازال الشيخ يواصل حملاته ، حتى اجتذب إلى موضوعه آراء الخاصة وأهواء الناس ، فانتقل الموضوع من طور إلى طور ، وأصبح التفكير فى تنفيذه أقرب من المناقشة فيه ، وأخذ الشيخ على عاتقه مهمة الاتجاه العملىّ إلى إلغاء البِغاء ، فمضى يطرق أبواب الحكام ، مثيراً غَضْبَتَهم للفضيلة ، مستحثّاً إياهم على أن يقضوا على مذابح الأعراض !

واطمأن الشيخ أخيراً بأن إلغاء البغاء أضحى مشروعاً يأخذ دوره الحكومىّ فى التحقيق شيئاً بعد شىء . . . فأحس بأن واجبه نحو هذا الموضوع قد قارب التمام ، فعليه أن يتجه وجهة أخرى ليستأنف الجهاد فى ميدان جديد ، ذَوْداً عن حوض الفضيلة ، وإعلاء لكلمة الدين .

إن هذه النفس الثائرة لم تَخْبُ جذوتها ، فهى لا تفتأ تتساءل :

هل من سبيل إلى مزيد من وَقود ؟

وَلِىَ الشيخ منصِبه فى « الإسكندرية » كبيراً لعلمائها ، ولعل قدميه قد مضتا به إلى الشاطىء بعد أن أدى فريضة الصبح يستروح نسيم البُكُور ، أو لعله خرج فى أحد الأصائل يتنزه بعد يوم عامر بألوان الشواغل والأعمال ، فما راعه إلا أن يرى ما يثير ثائرة الحليم ، ويَهِيج غيرة الشرقىّ الصميم !

لقد رأى النساء والرجال أخلاطاً أشباهَ عُراة ، لم يستروا من أجسادهم إلا أقلها ، فكأنما اخرجوا إلى الأرض ، كآدم وحواء ، إذ خرجا يَخْصِفَانِ عليهما من ورق الجنة !

تذمّر الشيخ بادىء بدء وتعوّذ ، وانبرى يناجى نفسه :

أين الحياء ، وأين الصون ، وأين العفة ؟ !

واحتشدت بين جنبيه جموع التقاليد تُهيب به أن يَنْهَى عن هذا المنكَر الذى لاصبر عليه لغيور !

ولكن أنسام البحر المنعشة تخطّرت إليه تحاول أن تُسكن من رَوْعه ، وتهدىء من ثائرته ... تخطرت إليه تحمل بين تضاعيفها أهازيج المرح وهتافات الشباب ويقظة الحياة . . فجعل يجيل الطرف هنا وهنالك ، فوقعت عينه فى رحاب الشاطىء على ذلك اللوح الفنّى المشرق من الوسامة والفتون !

تلك هى الدنيا ضاحكةً من حوله . . . وهذه هى الطبيعة متبرجةً مرحة كأنما تَشْرَكُ الناس فيما هم فيه من متعة وائتناس ... وذلك هو الجمال يُفيض على الكون كله الخلابة والسحر !

وأحس شيطانَ الأديب الفنان بين جنبيه ينفُض النوم عن جفنيه . . .

وألفى نفسه يهجِس :

ربنا ماخلقتَ هذا باطلا سبحانك ! ... للاستمتاع خلقْتَ الجمال ، وللفن وهبتَ الحرية والانطلاق !

وإذا لسانُه يترنّم بِنُتَفٍ من الشعر فى التعبّد بالجمال ، والتغنى بالحُسْن .

بيد أنه ما عتَّمَ أن أحس مارد التحفظ يشرئب من أعماق

نفسه ، ويطلق زئيره المُدَوِّى ... وسرعان ما اشتبك شيطان الفن ومارد التحفظ ، ودارت بينهما المعركة حامية الوَطِيس ، فاهتز جسمان الشيخ هزة عنيفة ، ففزع إلى داره نجاءً بنفسه من حرّ هذا العراك ، ودخل الدار تنتظمه قُشَعْرِيرة ، ولسان حاله يهتف بأهله :

أدركونى فإنى محموم !

ثاب الشيخ إلى هدوئه ، فعجب من نفسه : كيف بقى ساعة أسيراً لتلك الهواجس والنزعات ؟ إنها حقاً خُدْعَة شيطان رجيم !

وسرت فى جسمه رويداً روح الغيرة على الفضيلة ، فَصَيح بملء فيه :

لا يكون لهذه الخزعبلات بقاء !

وماهى إلا أن انتفض الشيخ ناهضاً ، وتخيَّر أصلب هِراواته ، وشمَّر عن ساعد الضَّرْب ، ومضى مهرولا إلى الشاطىء شاهراً سلاحه العتىَّ فى وجوه الغِيدِ الأماليدِ من شبيهات حوّاء !

لم تكن صيحات الشيخ إلا ثورة من نفسه على نفسه ، وإلا حماية من نفسه لنفسه ، فهو ينادى قائلا :

الفضيلة فى خطر !

وما هو فى الواقع إلا زاجرٌ نزعةَ الفن والانطلاق فى نفسه، خشية أن تعدو على حِصْنِ الفضيلة بين حناياه !

لم تكن هذه المعركة التى أجّج الشيخ لظاها على شاطىء العراة إلا رغبة النفس فى أن تثبت أجلى إثبات أن الشيخ هو هو ، فرْع تلك الأعراق الكرائم من الأبرار الصُّلحاء أُولى الكرامات!

وكلما أحسّ الشيخ وَهْناً يَسْرُبُ إليه من وَلِيجةِ نفسه الفنانة ، رفع الصوت جهرةً يستعصم به من ذلك الوهن، ويستمسك إزاء تلك النزوات . . . !

اندفع الشيخ يُجْرى قلمه فى أنهار الصحف ، تنديداً بتلك المخازى التى تَعْمُر بها شواطىء المصايف ، مستنهضاً العزائم والهمم لمكافحة العُرْى ، حتى اقترن اسمه بالشاطىء ، فأصبح عدوّه الأول، ولكنه العدوّ الشريف الظريف !

لا يفوت الشيخ أن الحياة تتطور ، وأن تصوير الفضيلة وتقدير الأخلاق يتحول بين عصر وعصر .

ولا مرية أنه لا يتوقع بهذه الصيحات أن يقضى على ما تموج به الحياة من تغير عقلى ونفسىّ ، فهو فى دخيلة نفسه يَقْنَع بأن يكون هذا التطور منظّماً يبرأ من طفرات التهور ومساوىء الإفراط . . .

إنه لأحكم عقلا وأنور بصيرة من أن يطمع فى أن تنزل النساء إلى البحر ملففات فى المُلاَءِ والحِبَرِ . . .

ومن الطريف أن الغوانى يسمعن صوت الشيخ العاصف يملأ الأرجاء بالأصداء ، ويَرَيْنَ هِراوته الصلبة تَتَطَوَّح ذات اليمين وذات الشمال ، فلا ياخذهن الفزع منه ، ولا يشعرن بحفيظة له ، بل إنهن ليدركن أن من وراء عنف الشيخ وشدة مراسه ، رقةَ جانب وإيناس طبع ، وأنه مع هذا التحفظ والتحنُّث يحمل بين جنبيه قلب شاعر وروح فنان !

عبقرية الشيخ تتمثل فيما استطاعه من أن يصبّ جام غضبه وثورته على الناس دون أن يستشعروا له مَقْتاً وكراهة ، بل لقد أنِسُوا به ، ومالوا إليه ، فكسب مودة الرجال والنساء على سواء ، وهو لذلك جدير أن يلقب بالمؤدِّب المحبوب !

أليس من المفارقة أن يكون الشيخ اسمه « أبو العيون » ثم يريدنا أن نغمض عيوننا عن بدائع الحسن وروائع الجمال ، كأنما يريد أن يستأثر وحده بالنظر والاستمتاع ، إذ يكون وحدَه حقًّا « أبا العيون » ؟!

اسماعيل تيمور

لما سئلت أن أكتب فى شأن شقيقى « إسماعيل » ، ألفيتنى فى حيرة مضنية . هل ألبى دعوة السائل ، فأقدم صورة شخص من أحب الناس عندى ، وأقربهم إلىّ ، صورة قد يجد فيها القارىء لونا من التحيز يثير استخفافه ؟ ... هل أتنحى لغيرى ، يتحدث فى شأن مهما يحاول الإجادة فيه ، فهو ناقص مبتور؟ ... وهل يستطيع الغريب أن يبلغ الإخلاص فى قوله ، والصدق فى نظره ، مبلغ الأخ الشقيق ؟

إذاً لا بد مما ليس منه بدّ ، فلأتدرع بالشجاعة ، والله نصيرى !

إذا شئنا أن نكتنه شخصية « الأمين الأول » تعيّن أن نعود القهقرى عشرات الأعوام ، فنصاحبه وقتا وهو صبىّ يافع ، موزّع الوقت بين المنزل والمدرسة .. فى هذه السن المبكرة ، بدأت شخصية « إسماعيل » تتبرعم ، وتخط لها طريقا معيّنا فى الحياة ، وكلما تعاقبت السنون ، تجلت هذه الشخصية مكتملة ثابتة المعالم ...

كان يعتز دائماً بمنزلته فى الأسرة ، منزلة الابن البكر ، وأراد بدافع — غير واع — أن يثبت لنا جدارته بهذه المكانة ، فاتخذ له بيننا شخصية « الزعيم » .

وكنا إخوة ثلاثة ، أولنا « إسماعيل » وثانينا « محمد » والثالث : كاتب هذه السطور . ومع أن البَوْنَ لم يكن شاسعاً بين أعمارنا ؛ استطاع « إسماعيل » أن يُزْعِمَ علينا ، وقَبِلْنا نحن هذه الزعامة راضيين ، إذْ لمحنا فيه مطلع رجولة مبكرة ، منطوية على رزانة وتعقّل ، بعيدة عن طيش الطفولة وعبث الصبا ، فإن شاركنا فى اللعب ، وجدناه على الفور يتخذ فينا مكان الرياسة ، وحين ألّفنا فرقتنا التمثيلية البيتية ، اضطلع هو بأدوار الزعماء من قادة وملوك ، فلما اشتد عودنا ، وخطرنا فى رحاب الشباب خطانا الأولى . أحجم « إسماعيل » عن مشاركتنا فى لعب الكرة ، وسباق العدو ، وما إلى ذلك من صنوف الملاعب كذلك أعفى نفسه من التحرير فى صحيفتنا المنزلية ، وانصرف مقبلا على الدار ، يصرّف شئونها مقتدراً لا يعييه شيء . وإذ يشهدنا فى لَبُوس الرياضة ، خارجين إلى الملعب ، يفترّ ثغرُه عن ابتسامة الأب العطوف !

وتلاحقت بنا الأعوام ، فإذا « إسماعيل » يشرف على مزارعنا

بالريف ، ويديرها فى نشاط ودراية أسبغت على الوالد فى أخريات أيامه طمأنينة وراحة بال .

وكان فى كل أطواره تلك ، يمثل النظام والمثابرة وصون التقاليد فى أدق مظاهرها ، فلا غرو إن جلس اليوم فى منصب يتطلب ممن يشغله تلك الخصال التى لازمت « إسماعيل » منذ الصبا ، فصارت فيه الآن طبعاً أصيلا لا يملك منه الفكاك . . .

هذه صورة موجزة لـ « إسماعيل » حتى بلوغه منصبه الحاضر فى القصر الملكى . وهى خليقة أن تثبت لنا أن الطفل فى سنيه الأولى لم يكن إلا صورة مصغرة من رجل المستقبل ، تجمعت فيها أمياله وخلاله .

ولما كنت الآن فى معرض التحليل لشخصية « إسماعيل » فلزام علىّ أن أستكمل صورته فى مختلف نواحيها . وبتعبير آخر : يجب أن أتناول بالحديث جانباً مجهولا من شخصيته . فلقد فرضت عليه مقتضيات الحياة وملابساتها — من عهد الحداثة ، حتى أصبح الأمين الأول — واجبات الإدارى الموهوب الراعى للتقاليد ، فحدّت من حريته ، وضيقت من آفاقه ، فمنعته أن يستمتع طفلا بكل مافى الطفولة من مراح وصخب ، ودفعته وهو فى زهوة الشباب المفعم بالغوايات أن يسلك طريق العمل المتواصل ،

ويقصر جهده فى الحصول على الشهادات العالية ، متطلعاً أبداً إلى مرتبة تواتى نزعاته وأمانيه .

أجل ، إن مقتضيات الحياة وملابساتها قد صبغت حياة « إسماعيل » بلون لم يكن مشرقاً كل الإشراق ، فخلعت عليه فى سن مبكرة وقار الشيوخ وحنكة المجربين ، وقد قابل « إسماعيل » هذا بالرضا ، وأذعن له بالطوع . ولكن « الطبيعة » الجبارة لم تخضع ولم يهن لها عزم ، فانطلقت تعمل فى الخفاء لتنتقم من جد « إسماعيل » ووقاره ، ولتنال من مجال الحياة مسرات تعوضها عما فقدته وما تزال تفقده ، فظهر على الأثر فى شخصيته جانب آخر له خطره .

وإنى إذ أعتزم رفع الستر عن هذا الجانب ، أرانى قد أقحمت نفسى فى مأزق لا يعلم إلا الله أين منه سبيلى إلى الخلاص ؟ !

وقبل أن أفضى إليك بالسر الكمين ، أريد أن أصحبك فى رحلة قصيرة إلى « مكتب الأمين الأول » فى قصر عابدين . فإذا ما اجتزت عتبة الباب ، طالعك على الفور شخصه خلف مكتبه ، وهو آخذ بسماعات « التليفون » يصغى إلى ماتنقله إليه من أحاديث مختلفة الألوان واللهجات . فيجيب عليها فى وقت واحد لبقاً غير متعسر . وأمامه كومات من الأوراق يرمقها ويرمقه فى عتاب

وحذر ، وهو فى الوقت نفسه لايفوته أن يحتفى بوفود الزوار التى لا ينقطع لها سيل ، يسأل هذا عن صحته ، ويبادل ذلك حديثاً يتعلق بالجو ، ويجامل ثالثاً بجملة خاطفة ، ورابعاً بتحية تتجمع فيها أصول اللباقة والأدب الرفيع . وقد تكون مشتبكاً معه فى نقاش مهم ، فترفع بصرك إليه فلا تجده ، فترسل بنظرك فيما حولك تبحث عنه ، فإذا هو فى البهو يستقبل جمعاً من الوفود ، مستمعاً إلى خطبائه ، مجيباً كل خطيب بما يُثْلِجُ صدره ، ثم لا تلبث أن تراه قد عاد إلى مجلسه الأول معـــك يتابع نقاشه فى بشْر وطلاقة . . .

وهناك فئة من الزوّار يصح أن نسميها «الأطياف» ، وأكثرها من ذوى المقامات الممتازة ، فهى لاتكاد تبدو فى الحجرة حتى تختفى فى لمح البصر ، ولا يملك « إسماعيل » إلا أن يغدو طيفاً مثلها ، يلاحقها ويتابعها ، فلا تفطن إلى مكانه إلا بنبرات صوته . . . يقع هذا كله ، ورهط من إخوانه موظفى القصر ، واقفون أمام مكتبه ، مرتقبون مَقْدَمَه ، يحمل كل منهم إضمامة أوراق ، يبتغى عرضها عليه فى خلوة عاجلة .

خلف هذه التكاليف والمراسم ، يكمن الجانب الفذ من شخصية « إسماعيل » وقد حان أن نجلوه لأعين القراء . . . هذا الجانب يمثل

(١٠)

« إسماعيل » الساخر المتهكم . فأما رمز هذه السخرية وهذا التهكم ، فهو ابتسامة خفيفة تعلو شفتيه ، هى فى مظهرها كسطح البحر الهادئ تحسبه ضحضاحا ، ولكنه فى الحق عمر بعيد القاع . . .

وإن « إسماعيل » ليعتز بهذه الابتسامة اعتزازه بأغلى الأشياء ، وهى فى نظره بمثابة خط « ماجينو » أو « سيجفريد » يحشد خلفها جيوشه المنظمة ، ثم يطلقها عند الحاجة لا لتقتل وتدمر ، بل لتثير روح الدعابة اللطيفة ، وتحيل ذلك الجوّ المتحفظ الوقور جوّاً رقيقاً يشمله الإيناس والبشاشة .

وإنى لا أخشى شيئاً خشيتى لهذه الابتسامة ، فإن لمحتُ طيفها يتحايل على وجهه ، أيقنت أن ثمة إصراراً من التهكم تدأخذ يتجمع فى صمت وسكون ، فأعدّ العدة فورا للفرار ، وإلا كنتُ فى الفخّ ضمنَ المصيد !

ومادام هناك تهكم ، فواجب أن تكون هناك فئة المتهكم عليهم . وأولئك هم الذين يسميهم رفعة « حسنين باشا » بـ « الضحايا » . . وإننا نحمد الله على أن « الأمين الأول » ، قد قصر تهكمه الصامت وعبثه الخفىّ ، على طائفة محدودة مختارة ، يستبقيها فى مجلس خاص ، ثم يطلق الفرد أو الجماعة منها ، كلما استبدت بنفسه رغبة التهكم الجامحة ، ويجعل منها مفزعاً وسلوى .

وإنك لتعجب من أن هذه الطائفة المختارة ، دائمة التجدّد ، والسر فى ذلك أن لـ « إسماعيل » عيوناً ومندوبين يبثهم فى مختلف المناطق ، هنا فى « القاهرة » ، وهناك فى الريف ، يتصيّدون الشخصيات البارزة ، ويقدمونها له غنائم لا ينقطع لها وِرْد !

ولرفعة « حسنين باشا » غرام بضحايا « إسماعيل » ، ولا يسعنا أن نُخْلِيَه من تَبِعة وجودها ، فهو شريك « إسماعيل » فيها ، وإن كان يفضّل أن يرعاها على البُعْد .

ولا يكاد « حسنين باشا » يَقْدَم القصر ، ويقع بصره على « الأمين الأول » ، حتى يسأله فى لهفة عن « الضحايا » . فيأخذه « إسماعيل » بيده إلى مجتمعهم العجيب ، فإذا هم مجموعة نادرة من الطوائف البشرية ، لو صادفتَها فى مُتْحَف من متاحف التاريخ الطبيعى لم تصدِّق عينيك . . . مجموعة تحوى شخصيات من مختلف العصور والأجناس : هذا تركى من أتراك القرون الوسطى ، يميل إلى مملوك من حكام الأقاليم فى العهد الغابر ، بينهما شيخ من معاصرى « الجبرتى » ، على مقربة منهم ألبانى من معاصرى العهد العثمانى ، يجالس عالماً لم يسمع بعلمه أحد ، وطبيباً لم يتجاوز اسمه عتبةَ حجرته . . .

وإن هذه الطائفة الكريمة لتقف صفاً أمام الصديقين ،

يَعْرِضانها كأنما يَعْرِضان «قره قول شرف» .. ثم توزع عليهم بعد ذلك أقداح القهوة، ولفائف التبغ، وملحقاتها!

ولعلك لا تعرف أن نزعة التهكم الخفية القابعة خلف شخصية «إسماعيل» الظاهرة تنافسها نزعة مماثلة فى شخصية «حسنين باشا» فإذا سمينا «إسماعيل»: «بموليير الصامت»، أو: «المداعب الظريف»، لم نجد «لحسنين باشا» أليق من فولتير الهادئ، أو: الساخر الرشيق!

تلك صورة سريعة، أقدمها للقراء على حقيقتها، وإنى لموقن بأن الحساب سيكون بسببها غير يسير، على أنى فوّضت أمرى إلى الله ...

بشر فارس

تلقيت يوما دعوة من إحدى الهيئات العلمية ، ولا أدرى متى جرى ذلك على وجه التحقيق ، وكانت الدعوة لسماع محاضرة لغوية لبحّاثة معروف ، سمعتُ به ، ولكنى لم أره بعد .

فذهبت وقد تخيلتُ لهذا المحاضر صورة تتفق مع موضوع محاضرته . . . رجلا أشرف على الخمسين ، بشارب مهدّل ، وعينين مجهودتين ، وصوت مُتَأكِّل . فما كدت أستقر فى مكانى من القاعة ، وأرفع بصرى إلى المحاضر ، وقد اعتلى منصة الخطابة ، وبدأ يلقى محاضرته ، حتى طالعتْنى صورة أدهشَتنى جدّ الدهشة . رأيتنى أمام فتى كله شباب وحيوية ، بعينين تلمعان ذكاء : له وجه صبيح ، بشارب طَرير مشذَّب على الطريقة الفرنسية ، وقوام إغريقىّ يذكّرنا بتماثيل « براكسيتيل » !

فتشككتُ فى الأمر ، وحسِبْت أنه قد جدّ تغيير فى المحاضرة

والمحاضر ، وانحنيت على صديق بجوارى أتبيَّن منه حقيقة الحال ، فأكد لى أن المتكلم هو الدكتور « بشر فارس » نفسه !

ورحت أستمع ، فإذا بالمحاضر يلقى بحثه بصوت جميل النبرات ، فى لهجة فصيحة ، تتوضح فيها دقة الأداء ، وحسن اختيار لمواقف الجمل ، وحرص على سلامة مخارج الحروف . كل ذلك فى اتساق وانسجام كاتساق النغمات وانسجامها فى اللحن الفنّى البارع !

واتسعت مسالك البحث وتشعبت ، بيد أن المحاضر كان قابضا على زمام موضوعه قبضة جبار ، يديره فى حنكة ، إدارة الربان الماهر لباخرته وسط العُباب الصاخب . . . حتى انتهى به أخيرا إلى شاطئ السلام !

* * *

منذ ذلك اليوم عرفتُ الدكتور « بشر فارس » وما أسرع أن توثقت صلاتى به .. فتجلت لى فيه شخصية أخرى غير شخصية ذلك العالم المحقق — تلك شخصية الصديق الوَدود المَرِح ، فالابتسامة اللطيفة التى طالما انقلبت إلى ضحكة عابثة لا تفارق ثغره ، والنكتة المصرية اللبقة تظل محلقة فى سماء مجلسه . وقد يمضى فى حديثه الطريف ، فلا يكاد يروى لك أخباره عن « باريس » ، وما شاهده فى دُور العلم بها ، وما لقيه فى مغانى عبثها ولهوها . حتى ينتقل بك

إلى قهوة « الفيشاوى » ومطعم « الحلوجى » ، فيحدثك عن الشاى الأخضر ، وصحاف « الطعمية » الفـــاخرة تحيط بها أصناف المشهِّيات . . ومن ثمّ يختفى أمامك العالم الجهْبِذ ، ليحل مكانه « ابن البلد » الوجيه العريق فى المصرية ، فلا يعوزه إلا « اللاثة » يديرها على رأسه ، فينطلق فى مسارح « سيدنا الحسين » يلوّح فى يمينه بعصا « الفتوّة » !

والحق أن جلسة واحدة مع الدكتور « بشر » تريح الأعصاب وتملأ القلب من إيناس ، وتحوّل نظر المرء إلى الناحية الرّفافة الجميلة فى الحياة .

* * *

صَاحِبَنَا الدكتورُ « بشر » وقتا ، ثم طلبناه حينا فلم نجده فكأنه « فصّ ملح وذاب » كما يقولون . . ثم عاد إلى الظهور ، ولكن فى فترات متقطعة نادرة . كنا نراه اتفاقا فى الطريق مهرولا لا يقر له قرار ، وهو محاط بشِرذمة من النجارين والحدادين والطلائين ، فإذا ما استوقفناه ، فسألناه عن سبب غيبته ، أشار إلى مرافقيه ، وقال ، وهو يتأفف فى لهفة المكدود : ألا ترون أنى مشغول ؟ ! ويتابع سيره فى عجلة واهتمام ، وقد اشتبك مع صُنّاعه فى مناقشة حادّة ، فلا نشك لحظة فى أنه ودّع العلم والأدب ، والتحق بزمرة « المقاولين » !

وبينما كنا فى مجلس نذكر صديقنا « بشرا » بالخير ، ونأسف لتوديعه الأدب ، إذا به يفاجئنا بدعوة ظريفة إلى مسكنه الجديد فى « جاردن ستى » ، فقمنا من ساعتنا إليه ، فوجدنا أنفسنا فى مُتْحَف فنّ ، كل ما فيه يَشِفُّ عن ذوق سليم غاية فى السموّ .

وجعل صاحب الدار يمر بنا فى مقاصير المسكن وقاعاته المنشأة على أحسن طراز . ويقف بنا أمام تحفه واحدة بعد أخرى ، وهو يشرح لنا تاريخها وقيمتها شرح خبير . فهنا صورة طريفة محلاة بإمضاء فنان ، وهنالك صَحْفة من الفن الصينىّ الثمين يرجع تاريخ صنعها إلى عهود غابرة ، ترى بجوارها مقعدا لطيفا على شكل رَحْل من رِحَالِ الجمال . وفى ركن من أركان الغرفة يقوم ذلك الرّفّ الساذَج البديع ، يحتضن « تاييس » و « مدام بوفارى » و « أفروديت » وهن فى أثوابهن الغالية الفاتنة !

ففطنّا بعد لأى إلى سرّ غيبة الصديق ، وطفقنا نطوف معه ذلك « المَزَار » المبتكر ... حيث يَعْبَق فى جوه عطر الفن وتشمله روح الجمال !

طابع الفن والجمال يَسِمُ حياة الدكتور « بشر » بأكملها .. يسم شخصه ومسكنه وتآليفه وكل أسباب عيشه ، فإذا ما قرأت له مقالا رأيته أَلْبَسَ الفكرة العميقة والرأى الناضج ألفاظا ينتقيها

فى حكمة ، وينسقها فى صبر وجلد ، ثم ينضدها تنضيد العِقْدِ على صدر الحسناء !

فإذا لقيتَ شخصه ، ألفيت أمامك شابا أنيقا يحسن كيف يلائم بين لون رباط الرقبة والقميص والحُلَّةِ ، ليخرج منها صورة فنية طريفة .

ولصديق « بشر » شخصيتان : شخصية الأديب ، وشخصية العالم ، تتنازعانه على الدوام . . . ولا ندرى أيتهما يقدَّر لها الفوز على الأخرى ؟ فقد أصدر فى عام مضى مسرحيته الرمزية « مَفْرِق الطريق » . فتلألأت نجما جديدا فى سماء الأدب الرفيع . وظهر له منذ فترة كتابه : « مباحث عربية » ، فإذا هو سفر قد لا نغالى إذا قلنا إنه فى طليعة الآثار العلمية التى تمخض عنها العصر الحديث ، من حيث دقة البحث ، واستيعاب الموضوع ، وحسن الصياغة ، والبراعة فى التنسيق والتنميق . كل ذلك على أحدث نهج علمىّ خطّه علماء الاستشراق.

ونحن اليوم نتتبع خطوات « بشر فارس » وهو يروح ويغدو ، يَنْحِت الصخر آنا فى مفاوز العلم ، ويَنْظِمُ الزهرَ حينا فى خمائل الأدب ، ونتساءل فى حيرة : إلى أى مدى يستطيع الصديق أن يحتفظ بشخصيتيه المستقلتين ؟ وهل فى الإمكان أن يجمع المرء

بين الأدب والعلم ، ولا يستشعر فى دخيلة نفسه ذلك التنافر القائم بين هذين العنصرين النفيسين، اللذين لا يهدأ لهما حال إلا إذا أخضع أحدهما زميله واستعبده ؟ !

* * *

وللدكتور « بشر » نواح خفية ، لا يعرفهـــا إلا أصدقاؤه الخلصاء ، وإنى لمذيع بعضها ، وأمرى إلى الله ... فقد يحاسبنى على إفشائها حسابا عسيرا !

إن صديقى « بشرا » ـ ولنخفض أصواتنا قليلا ـ رجل ذوّاقة فى المآكل ، واسع الاطلاع على ألوان الطعام ، عظيم الخبرة بكل ما تزدان به الموائد ... وإنها لمتعة حقا حين تسمعه يحدثك عن صحاف الأطعمة المختلفة واحدة بعد أخرى ، يروى لك — وعيناه تلمعان لمعان المرق الشهىّ — كيف يشترى بنفسه الزُّبْدَ الطازج ، ويلتقى عند الجزار أطايب اللحم ، وكيف يقف أمام الفرن يجهز الصنف الذى يحبّ ، ثم لا يلبث أن يأتى عليه ولما يتمّ نضجه على النار ، مقتفيا أثر المثل الصالح : خير البر عاجله !

ولصديقنا « بشر » جولات موفقة فى مطاعم المدينة ، فهو إذا دخل أحدها لا يطلب القائمة ، ولا يُعْنَى بمكانه من المائدة ، بل يطلب أن يدلوه فورا على المطبخ . وثَمَّ يكشف عن القدور

يتفحصها تفحّص عارف ، ثم يشير أخيرا إلى واحدة منها . فيحضرونها له بأكملها ... ويشمّر الدكتور عن ساعدِ الجُوع غيرَ مَعْنِيٍّ وقتئذ بأناقته ، وينكبّ على القِدْرِ ، فيأتى — فى لحظة خاطفة — على ما تَعِبَ الطاهى فى صنعه ساعات طويلة !

وإنى أنصح — نصيحةَ مجرب ! — لمن أصيب فى معدته ، ويرغب فى دواء ناجع لإصلاحها أن يأتى بالدكتور « بشر » عن يمينه و « زكى طليمات » عن يساره ، ثم يراقبهما هنيهة وهما يتنا ضلان فى معركة القدور كَرًّا وفرّا ... فإنه لا يُعَتِّم أن يشعر بمعدته تتصايح فى ثورة جامحة ، وإذا به ينطلق هو أيضا فى صحاف الطعام يفتك بما فيها فَتْكَ مِغْوار !

زكى طليمات

منذ أربعين سنة ونيِّف ، سجَّل أصيل يوم من أيام الصيف ، باكورةَ لقائى لصديق « طليمات » .

وأرجو ألا يَعْجَلَ صديقى بالإنكار علىّ فى عدد هذه السنين ، فإن هذا اعتراف منى يُلْزِمُنِي ويُعْفِيه من الإلزام ، وإنه لطليق من تَبِعاته ما وسعه جهد الشباب !

كنتُ إذ ذاك فى مؤتَنَف الصبا ، أسكن بيتنا العتيق فى حىّ « درب سعادة » ، وكانت حجرتى تشرف على حديقة البيت التى تتكاثف خمائلها ، وتتضايق مسالكها ، فتريك الغابة فى صورة مصغَّرة .

وبينما أنا أطل ساعة من النافذة ، إذ لمحتُ غلاماً يَشْهَر فى يمينه مُدْيةً يبرق حدها تحت شعاع الشمس ، وهو يعدو خلف صبىّ البستانى ، يحاول اللحاق به ، فلما أدركه سلط المدية عليه يريد

إعمالها فى رقبته ، فبادر بعض خدم البيت إليهما ، وحالوا بينهما قبل أن يسبقَ السيفُ العَذَل !

وبعد ساعة أو بعض ساعة ، دُعِيتُ إلى لقاء زائرة من كرائم السيدات ، فلما خففتُ إليها قدَّمتْ إلىّ صبيا ما كدت أراه حتى تبينتُ أنه هو صاحب المُدْيَة ، وبطل موقعة البستان !

فاستشعرت الخشية منه ، وتباطأت عن تحيته ، ولكنه أسرع يجذبنى ، فنزلنا إلى الحديقة نلعب معا .

ومرت لحظات فى صحبة هذا الرفيق الجديد ، ملأتنى أنسا به . وتطلعا إليه ، فقد هزّ سمعى بحديثه العامر بالطرائف والأعاجيب . ولكن منظر المدية ، وهى تشرئبّ من جيبه ، كان يعكر على طمأنينتى إليه . وجعلت أستدرجه فى الحديث مترفقا ، لأعرف سرّ حملته على صبىّ البستانى ، فأنحَى على ذلك الصبىّ يصف غلظته وتوقحه ، ويَنعَى عليه وقوفه فى طريقه ، إذ منعه من تسلق الشجر ، وانتزاع شىء من أغصانه

وانبرى رفيقى يقول ، وقد استل المدية من جيبه :

لولا ازدحام الناس علىّ ، ومنعهم إياى . لرَوَيْتُ أرض البستان بدم ذلك الغِرّ المأفون !

وثارت بى مشاعر مختلفه ساقت يدى إلى تلك المدية فى محاذرة

واحتراس ، فما إن قلبتها ظهرا وبطنا حتى استبان لى أنها سكين من صفيح يَتَثَنَّى مع الريح !

ومال علىَّ الرفيق يقول فى زهو وَمرَح :

لو زرتَ بيتى لأريتُكَ ما أملك من عُدة الحرب والضرب ، وأدوات الطعن والفتك !

وتابع خطواته معى ، وهو يبسط لى أنباء مغامراته التى يستخدم فيها تلك العدة وهذه الأدوات ، مطنِبا فى الوصف ، مسترسلا فى الحديث . . .

وذهبت إليه فى منزله يوما ، مصحوبا بشقيقىّ الكبيرين ، فتبينتُ صِدْقَه فيما كان يخبرنى به ، إذ بهر عينى ما عرضه علينا من عتاد حربى : خناجر وأسياف ، بنادق وقذائف ، ولكنه عَتاد زائف من رَميِم وحُطام !

كذلك كانت فاتحة التعارف بينى وبين صديقى « طليمات » . . .

ومنذ هذا الحين ، تواصلت بيننا المودة فى ركب الأيام

وكلما تعاقبت علينا العهود تكشفت لى جوانب من تلك الشخصية الزاخرة بالطريف العجيب من شمائل وملكات . .

ولا مَنجاة لى من الإقرار بأن صديقى « طليمات » إذا ضاق

اليومَ ذَرْعا بأثقال التمثيل ، فإنى عن بعض ذلك مسئول ، وعلىّ من التبعة نصيب غير منكور .

لقد كنت أنا وشقيقاى ، نأنس بدعوته إلى مشاهدة المسرحيات فى فرقة « اسكندر فرح » وفرقة « سلامة حجازى » نطاوع بذلك ميلنا لهذا الفن الجميل ، ونجارى طموحنا إلى التزود منه ، والاستمتاع به . وعلى مرّ الأيام يَوَثق هوانا له ، وبلغ بنا التعلق به كل مبلغ ، حتى جعلنا من أشخاصنا أبطال تأليف وتمثيل ، ومن أبهاء دارنا مسارح ، ومن مُلاءات الأسرة ومفارشها أستارا ومناظر ، ومن أهل الدار وحاشيتها وزّوارها جمهورا يشهد ما نقدم من مسرحيات .

وكان أكبر الظن أن تخبو تلك الجذوة الصبيانية بانقضاء عهد الحداثة ، وأن تنطوى تلك الألاعيب باستقبالنا جِدّ الحياة فى عُنفوان الشباب .

ولكن الأقدار دبّرت لنا حادثا كان له كبير أثر فى حياتى وفى حياة صديقى « طليمات » . . . ذلك أن شقيق الأوسط « محمد تيمور » رحل إلى « باريس » يستكمل دراسته العليا ، حاملا معه قبسا من تلك الجذوة التى تلهبه شوقا إلى فن التمثيل ، فبقى ثلاثة أعوام يتنقل فى مجالى الفن ، ويغترف من مناهله ، مطلقا لنفسه العنان .

وعاد أدراجه إلى ربوع الوطن، يقصّ علينا روائع ما شهد، ويتحدث عن الفن الأوربى حديث دراسة وشرح وتحليل. تَشِيع فى لهجته حماسة فى الوصف، ونشوة فى العرض، وحميّة تفصح حرارتها عن فورة إحساس، وصدق إيمان...

وأبىَ «محمد» إلا أن يشرع الطريق، ويشق الأفق، فاقتحم الغمار بنفسه مؤلفا وممثلا ومرشدا على وجه عام... وكنا — أنا و «طليمات» — من ورائه، نقفو خطاه، ونسير فى ركبه، يحدونا تطلع وإعجاب.

وكان شقيقى كلما ضرب فى لجة الفن ضربة، اهتز صديقى «طليمات» هزة... حتى حان الوقت الذى فقد فيه الصديق توازنه، فطرح عنه أغلال التقاليد؛ تذيبه حمى التمثيل، وقطع دراسته العليا، ليلحق بإحدى الفرق التمثيلية القائمة فى تلك الأيام.

ومن ثم بدأ «طليمات» عهدا جديدا فى حياته، مازال يواصل تجديده وتنميته، وها هو ذا اليوم يتمتع فيه بالصيت الطائر، والمجد الزاهر. ولكنى على الرغم من ذلك لا أدرى، ولا يدرى هو نفسه الآن: أكان مخطئا فى إقباله يومئذ على ذلك العهد الفنىّ؟ أم كان على صواب؟

لم يكن التمثيل فى تلك الحقبة إلا مجالدة صِعاب، واقتحام

عقبات ، واحتمال مكاره ، دون أن يكون من وراء ذلك كله مَغنَم يُذكر ، أو جاه يشار إليه بالبنان . .

بيد أن صديقنا « طلميات » ظل يطاول ويصابر ، حتى أشرف على نهاية لم يأمن فيها على نفسه ، فآثر أن يعتزل هذا الجهاد العقيم ، ضنّا بوقت يضيع ، وشباب يذهب هباء .

دخل الشاب ميدان العمل الحكومى ، موظفاً فى « حديقة الحيوان » وأخذ يرقب الفرص ، ويرصد الأحداث ، وهو لا ينفك مفكراً فى ميله الفنى ، طلاعاً إلى فرج قريب .

وفى أرجاء تلك الحديقة الرحيبة كان أخونا « طلميات » يجول وحده ، مطلقاً لخياله أجنحة خفاقة ، واجداً لفكره مسرحاً بعيد المدى .

كانت هذه الفترة من حياته فترة تأمل عميق ، وفرصة دراسة واطلاع ، ولقد أفاد من هذه الأيام الهادئة فائدة صاحبته ثمارها فى مختلف مراحل حياته من بَعْدُ .

ولا مرية فى أنه قد لقى فى عشرة الحيوان الطيب البرىء ، من الصفاء والطمأنينة ، ما نفّس عنه كربته التى عاناها فى صحبته مع الإنسان !

بضعة أعوام قضاها صامتاً ساكن الطائر ، يرتق من أعصابه

ماتفتّق ، ويأسو من جراح قلبه ما كان دامياً .

ولكن هل يستطيع ذلك الشاب الثائر الطموح أن يُخْلِد إلى دعة وسكينة ، وأن يأنس بالهدوء والركون ، إلا بمقدار ماتندمل جراحه ، وتتجدد قواه ، ويرجع إليه موفور العزم والإقدام؟

أَوَقادر هو على أن يبقى فى «حديقة الحيوان» حبيساً يَقْنَع بِعِشرة العجماوات الطيبة ، مكفولا له رزقُه فى رَغَدٍ وأمان؟

حتّى متى يغالب نزعة الفن الفوارة بين حناياه ؟

لاح له بغتة فى الأفق نجم يلتمع . . .

أَنجمُ سعد هو ، فيتفاءل به ويستبشر ؟

لم يكن ذلك النجم الطالع إلا مباراة عقدتها الحكومة تشجيعا للتمثيل ، وتقديراً لعشاقه ، فدخل « طليمات » هذه المباراة فيمن دخل ، وخرج منها حاملا قصب السبق . فما هى إلا أن شَخَص إلى «باريس» مبعوثا رسميا للتخصص فى دراسة فن التمثيل ، والتمرس به .

هذا طور جديد من أطوار حياة الصديق . . .

إنه طور حاسم تقرر به مصيره ، فليتقدم فيه ، مؤمناً بأنه لا يحيد عنه من بعد ولا نكوص .

سنون قضاها «طليمات» فى معهد الفن العتيد ، وفى ربوعه الأصيلة ، فلبث هنالك للفن ربيباً ، يمرح فى أحضانه ، ويغتذى بِلِبانه .

ظل « طليمات » فى « باريس » هَيْمَانَ عطشان ، ينهَل من الدراسة الفنية المنظمة فى مختلف مناحى التمثيل ؛ ورجع إلى وطنه وقد اختمرت خبرته بالفن ، واستوى نَمُوذَجا جديداً للفنان العليم ، تعتلج بين جنبات نفسه مطامح وآمال وأهداف .

واندفع الرجل فى غِمَار حياته الجديدة ، مشرفا على شئون التمثيل فى الدولة ، يحاول أن يبنى ، وأن يقيم صروحا ويشق آفاقا ، فكانت تعلو به الحياة وتهبط ، وتعبث به الرياح أحيانا يمنة ويسرة ، إلا أنه مافترت له همة ، ولا أدركه كلال ، فاستطاع بعد لأى أن يصل ، وأن يُشْرِف من بنائه العالى إشراف منتصر غلاب !

برهن « طليمات » على أنه ممثل راسخ القدم ، وأنه مخرج فى الطليعة ، يساير التطوّر ، ويقتبس الطريف ، وأنه أستاذ أصيل يطبع جيلا بطابعه الجديد ، جيلا من شباب الفن على نهج قويم . . وها هوذا معهد التمثيل — غَرْس يديه ، وثمرة جهاده — كأنما هو إذاعة موصولة تَتَغَنَّى باسم « طليمات » !

هل لنا أن نتساءل اليوم :

أىّ باعث نفسى كمين هتف بذلك الفنان ليؤدى رسالته فى الحياة ؟

إن المستبطن لخفايا هذه النفس ليرى لِزاما عليه أن يجاهر بأن ذلك الباعث القوىّ لم يكن إلا الشعور بالنقص .

وإن هذا الشعور لَخَلَّة عجيبة تتدسس إلى كبار النفوس ، فتعمل فيها عمل السحر . . .

هذه الخلة التى توصف بالنقص ليست إلا وسيلة إلى الكمال !

لاعظيم فى منحى من مناحى العظمة إلا يَدِين لهذه الخلة بما توافر له من تبريز واستعلاء . . .

تُرىَ أىّ نقص ذلك الذى أحسّ به الناشىء الموهوب « طليمات » فعمل فى نفسه ، وحفزه إلى أن يستكمل مافات ، ويتعوّضَ مما خسر ؟

نشأ الصبى فى بيت نعمة ، يتقلب فى أعطاف رَفاهة ، حتى أَلِف الحفاوة والإعزاز ، ولكن حوادث الدهر مكرت به ، وبيّتت له غَدْرَةً عصفت بذلك التنعم واليسار ، فألفى نفسه يواجه حياة تتنكر له ، وتريده على غير ماتعوّد ، وتلزمه التعويل على جهده فى أمره ، فانطوت نفسه على رغبة فى التعويض ، هى رغبة الظهور ، هى الطموح إلى أن يُحدِق به أنظار التقدير والإعجاب.

ولقد باكرتْهُ تلك النزعة فى عنفوان صباه ، فلم تجد لها متنفساً إلا فى ضروب من المعابثات والمشاكسات عليها سمات المغامرة والبطولة ، وفيها دلائل الجرأة والتهور . وإنه ليطاوع تلك النزعة الناجمة ، فيصطنع من الوسائل والأسباب مايرضى به نفسه الجياشة .

وليس أدل على ذلك من حرصه على اتخاذ الصفائح سيوفاً

ورماحاً لمحاربة ونزال ، وليست مشاكسته لصبيّ البستانى التى روينا قصتها فى مطلع هذه الكلمة إلا قطرة من يَنْبوع تلك النفس النزاعة إلى غلبة وسلطان !

ولما شبّ « طليمات » أَنِس بميدان التمثيل ، إذ لقى فى رحابه معواناً على الظهور ، واجتذاب الأنظار ، واستدرار الإعجاب ، فما لبث أن تعلق به ، واندمج فيه ، وجند له مواهبه ، ولم يهدأ له بال حتى أصبح من قادته الأكفاء .

أمر عجيب فى حياة « طليمات » الفنية ، كان موضع ملاحظة وتساؤل ، ذلك أنه يبلغ القمة حين يقوم بتمثيل أدوار الأشرار...

فهل هناك صلة بين طبيعة الفنان ، وبين قدرته على التعبير ، فإذا كان شريرا استطاع أن يعبر عن الشر التعبير الأقوى ، وإذا كان طيب النفس استطاع أن يمثل الطيبة فيما ينهض به من فنه ؟

الجواب عن هذا السؤال فى نظرى هو أن الفنان دائما يجيد التعبير فى الناحية التى تعوزه فى طبيعته الكامنة ، فإذا كان يائس النفس غلبت عليه فى فنه رغبة المرح واللهو ، وإن كان ضحوك السن ممراحاً لم يعجزه أن يعبر فى فنه عن الجدّ وتمثيل الشعور الحزين . وقس على ذلك تشدق الجبان بالشجاعة ، والمتلاف بالحرص ، والعاجز ببعد الهمة . وقد وجدنا أمثلة ذلك فى الشعراء . فهذا « جرير » الذى لم تكن له بالمرأة مواصلة ومغامرة ، كان أرق الناس غزلا . وبجانبه

« الفرزدق » الذى عُرِف بأنه زِيرُ نساء لم يكن له غَزَل مشبوب .

وكذلك نجد أمثلته بين رجال السينما المعاصرين . فهذا « شارلى شابلن » ينحو فى حياته الخاصة منحى العزلة والنفور من المجتمع والانطواء على النفس ، مع أنه أقدر ممثل هزلى عرفه العصر الحديث فى العالم الفنى .

وأكبر ظنى أن التفسير الصحيح لهذه الظاهرة ، هو أن أولئك الفنانين يكملون فى عملهم الفنى ما حُرِموه فى حياتهم الخاصة التى هيأتها لهم طبيعتهم الظاهرة .

وقياسا على هذا التفسير يمكننا أن نعرف : لماذا ينجح صديقنا « طليمات » فى تمثيل أدوار الأشرار ، فقد ظهر فى « شيلوك » المرابى فى مسرحية « تاجر البندقية » وصاحب المصنع الوَغْد فى فلم « العامل » وفى غيرهما من الشخصيات الشريرة ممثلا بارعا يتقمص الشخصية التى يمثلها تقمصا يدعوك إلى الإعجاب ، ويأسرك بمواقفه الفنية المحكمة .

وكل الذين اتصلوا اتصالا وثيقا « بطليمات » لايخفى عليهم أن طبيعته الأصيلة تنطوى على الطيبة والرفق والدماثة ، وأنه مُلِىء بإنسانية خيّرة يَشِيعُ منها الوفاء والنبل وكرم المعاشرة .

ويلوح لى أنه حين واجه الحياة بهذه الخصال الرفيعة صادفته ألوان من المعاكسة وسوء الجزاء ، حالت بينه وبين ما يهدف إليه

من مثل عالية تعتلج فى قلبه ، فيرغب أن يحققها بالوسائل الشريفة التى ترسمها له أخلاقه . وسرعان ما استبان له أن للنجاح وسائل لا تتفق دائما مع الرفق ولين الجانب ونبل الطبع ، فكان لذلك فى نفسه أثر ظل مكبوتا ، حتى وجد له مَخْرَجا فيما يقوم به من الأدوار .

فهو بتمثيله الشخصيات ذوات النزعات الشريرة التى استبان له أنها الناجحة فى ميادين الحياة — يُرْضِى الجانب الذى لم يستطع تطبيقه فى حياته العملية ، فلم يجد إلا أن يستكمله تمثيلا فى حياته الخيالية . وبذلك انتقم بالفن من المجتمع الذى أساء إليه ، ومن المُثُلِ التى وقفت حائلا بينه وبين النجاح الذى كان يمنِّى به نفسه فى مجتمعه !

وإذا كنا قد أعجبنا « بطليمات » فى هذه الأدوار ، فلا ننسى أنه اشترى هذا الإعجاب بثمن عظيم ، هو إباؤه أن يكون شريرا عمليا فى حياته الاجتماعية .

ونحن نحمد الله على أنه وجد على منصة المسرح ، وعلى الستارة الفضية ، مُتَنَفَّسا يحفظه لنا من الإخلال بمبادئه السامية وأخلاقه الحسان فى واقع الحياة ! . . .

نجيب الريحانى

شابّ موظف فى إحدى الشركات الأجنبية ، يعمل هناك بأجر متواضع ، لا همّ له إلا أن يحيا فى بيئة عمله حياة طيبة ، وليس له من هدف إلا أن يحظى بمكافأة أو درجة ، وقد يسمو به التمنى إلى أن نحلُمَ بمكان الرياسة فى القسم الذى يعمل فيه، ليستمتع بما يستمتع به الرؤساء من سلطة وجاه .

ذلك الشاب هو « نجيب الريحانى » ، أو — على الأصح — « نجيب ريحانة » ، فقد كان مشهورا بهذا الاسم قُبيل الحرب العالمية الأولى .

تخرّج فى إحدى المدارس الفرنسية ، فتزوّد بثقافة أجنبية ، أغرته بالمضىّ فى المطالعة ، يشغل بها أوقات فراغه . وألفى نفسه يبذل الموفور من عنايته للأدب التمثيلىّ ، إذ آنس من أعماق قلبه استجابة غامضة لهذا اللون من الأدب الفنىّ .

ولم يلبث ذلك الميل أن ذكا وتوقّد ، فأصبحت المسرحيات تملك عليه نزعة المطالعة ، وإذا هو يرتاد دُور التمثيل التى كانت قائمة فى هـذا العهد ، ويترقب قدوم الفرق الأوربية التى كانت تزور « مصر » فى مَطافها بين الحين والحين .

واستبدّ به الميل إلى مشاهدة التمثيل ، حتى أوقعه ذلك فى مَآزق وأزمات مالية ليس له إلى احتمالها من سبيل . وكثيرا ما اضطر لضيق ذات يده أن يتسنم أعلى المقـــاعد فى دور التمثيل ، حتى لا يُحْرَمَ شهودَ ما هو معروض من المسرحيات ، فإذا رجع إلى داره بعد المشاهدة والتفرج ، ومضى فى حجرته يخلع ثيابه ، رأيته قد وقف تجاه المرآة يتفحص قسمات وجهه ، ثم انطلق يحاكى مشهدا من تلك المشاهد التى ملأت عليه سمعه ، وخلبت لبّه !

وقد يَغْفَلُ عن وقته المتأخر من الليل ، فيتصايح عالى الصوت ، ويأتى بحركات تمثيلية ثائرة ، فلا يعتم أن يسمع طَرْقاً شديدا على الباب ، وأصواتا جَهيرة من هنا وهنالك ، تزجُره وتنهاه عن التمادى فيما هو فيه ، إبقاء على سكينة الليل ، وصَوْنا لراحة النُّوَّام . . .

فيثوب إلى رشده ، وينتبه إلى أنه ليس على منصة المسرح ، وإنما هو فى عُقْر داره ، بين حوائط حجرته ، قريبٌ من سريره ،

فلا يملك إلا أن يتسلل مستخفيا تحت لحافه ، مطلقا شخيره الحادّ ، موهما طُرّاق الباب أنه فريسة كابوس مزعج وحُلْم مثير !

وعلى مرّ الأيام ، عرف طريقه إلى « قهوة الفن » مُلْتَقَى المولعين من الناشئة بالتمثيل وما إليه ، فما أسرع أن اختلط بهم ، واندسّ فى مجالسهم ، يشبع نهمه إلى الحديث والمناقشة والنقد ، فى ذلك الجوّ الصاخب الذى يتسع لكل ما يقال ، كما يقال !

وصارت « قهوة الفن » مثابته الحبيبة إلى نفسه ، يستمرىء الحياة فيها إذا حضر ، ويهفو إليها إذا غاب .

وكان حين يقصد مكان عمله ، فى النهار ، يحس التراخى والفتور . . . وطالما أغفل الأوراق تَسْبَح على مكتبه ، ويموج بعضها فى بعض ، وانطلق هو يسبح فى آفاق أخرى ، آفاق المسرح الشائق بأخيلته ومباهجه وأمجاده .

وانتبه مرة إلى أن أقلام الرصاص التى كانت تزحم مكتبه لم يبق منها قلم يصلح للكتابة ، فقد جعل يقرض أطرافها فى أوقات أحلامه ، لا يعى ما يفعل ، حتى أحالها أنقاضا متآكلة !

وشَدَّ ما كان يحرص على أن يدسّ المسرحيات بين أوراق عمله ، وينكفىء عليها يقرؤها فى جدّ وشغف ، موهما رفاقه أنه منصرف إلى إنجاز ما بين يديه من الأوراق .

وأقبل مرة على مكان عمله ، فراعه أن موظفا آخر قد حل محله فى مكتبه ، فراح يتبيّن جليّة الأمر ، فبرز له الرئيس يُعلمه أن الشركة ضاقت ذرعا بأقلامه المتآكلة ، وبتلك المسرحيات التى يخفيها بين الأوراق !

فخرج كاسف البال ، يفكّر فيما نابه ، لا يدرى إلى أى مصير يُساق ؟

ولكنه لم يكد يتقدم بضع خطوات فى الشارع ، حتى أحس بأن الدنيا قد أشرقت لعينيه ، وأن الآفاق قد انفسحت أمامه ، وكأنما قد انزاح عن كتفيه عبء فادح ... فانبرى يقطع الطريق بخطا ثوابت ، وهو يتلفتُ يَمْنَة ويَسْرة ، مفترّ الثغر ، يهينم بقوله :

كان ما كان ، ورزقى على الله !

وشعر بشىء يتحرك فى جيب سترته الأعلى ، فإذا قلمه الرصاص يتطلع إليه مدهوشا حنِقا ، وكأنه يأخذ عليه ذلك المرح الطارىء فى موقف إشفاق وتحسّر . فاجتذب القلم من جيبه ، فإذا هو أحد تلك الأقلام المتآكلة المعضوضة ، فأمسك به وقتا ينظر إليه فى سخرية وتهكم ، والتفت فى وقفته صَوْب دار الشركة ، وقذفَ بالقلم نحوها فى مقت وازدراء ... ولعل القلم قد أصاب

المرمىَ ، فمرق إلى الحجرة عائداً إلى مكانه من المكتب ، ليُسْلِمَ زمامه إلى من هو أحق به !

توالت الأيام على الشاب متنقلا بين « قهوة الفن » وحجرة بيته ، فهو فى القهوة يلقىَ رفاقه ، ويعبّ من أحاديثهم ، وهنالك فى الحجرة يطبَع على مرآته مشاهد التمثيل التى تَعِجّ فى رأسه . وما يزال يفعل ، حتى يثور به الجيران ، فيلوذ بالفراش ، ملقيا تَبِعة إقلاق الراحة على ذلك الكابوس المخيف الذى لا يَدَ له فى جَلبِه ، ولا قدرة له على دفعه !

قضى الشاب فترة يحيا حياة العُطلة والطلاقة ، وكلما تقدمت به الأيام ألفىَ جيبه يتداعى ، وأحس على الرغم منه قلقا يساوره ، وكأن هاتفا يصيح به :

إلى أين ؟

ولكن الشاب لا يلبث أن يستعيد طمأنينته ، ويُمِدُّها بتلك الحيوية وذلك البشر اللذين يكمنان فى طوايا نفسه ، فيردّد قوله :

فرج الله قريب !

ويوما وجد نفسه قد احترف التمثيل فى إحدى الفرق ، فراح يعمل فى همة ومضاء ، وأخذ يتولى أدوار المآسى والفواجع ، ولعله أبى أن يقوم بتمثيل أدوار المهازل والأفاكيه ، ترفعا بنفسه عن التدلى إلى مواقف لا تليق بممثل خليق بالاحترام !

وعلى الرغم مما بذل ممثلنا الشاب من جهد ومثابرة واهتمام ، فقد أخْلَفَه التوفيق ، ولم يَلْقَه النظَّارة بكبير التفات ، وزاد من كربته أنه أحس الهمز واللمز يَئِزُّ حوله ، وأعين الرؤساء ترميه بالنظر الشَّزْر .

وحل يوم خرج فيه الشاب من تلك الفرقة ، وقد أُلْقِيَ إليه أجره ، مشفوعا بالرجاء إليه ألا يعود !

وانصرف الشاب كاسف البال ، مهموم الفؤاد ، ولكنه ما عتم أن التفت إلى المسرح يودّعه بنظرة لوم وعتاب ، وهو يهمهم :

أَأَنْكَرْتَ اليوم قدرى . لا عَلَىَّ . أرض الله واسعة !

ثم رنَّتْ ضحكته ، وأسلم ساقيه للطريق .

عاود وَكْرَه فى « قهوة الفن » وطال تعطله ، وكلما حَزَبَه أمره ، واحلولكت الدنيا أمام عينيه ، فَزِع إلى كوامن المرح فى أعماق نفسه ، يغالب بها الضيق والبأساء !

هذه « قهوة الفن » تهيء له متعة النفس وأنس الحديث ، ولكنها لا تُسْمن ولا تغنى من جوع . . .

وطاف برأسه طائف يغريه بأن يعود إلى حيث يستغفر قلمه الرصاص المعضوض ، ويقسم له على أن يكرم صحبته ، وأن يحميه من عبث أسنانه . . . ولكن منظر هذا القلم الجامد العَبُوس

كان ينفّر من رأس الشاب فكرة العَوْد إلى الدفتر والحساب ..!

وذات مساء كان يجلس فى « قهوة الفن » متخاذل الأوصال ، يهيم فى أخيلة فساح ، وهو يحاول أن يستبقى عُقْبَ اللفافة بين أنامله ما وسعه أن يستبقيه ، فسمع صوتا يحييه ، فالتفت صَوْبَ الصوت ، فرأى صديقا لم يره منذ فترة ، ومرت لحظات عامرة بألوان الحفاوة والتهلل ، ثم أقبل الصديق الزائر على صديقه يتفحصه ويتفرس فى ملامحه ، ثم قال :

كم قرشا فى جيبك الآن ؟

فَذَهِلَ الشاب مما سمع ، ولكنه ابتسم لصديقه قائلا :

أتراك اخترتنى هَدَفا لمشروع اقتراض ؟

فلاطف الصديق كتف الشاب ، وهو يقول :

ما كان ليخطر ببال أحد أن يطلب منك شيئا . . . إن الإفلاس ليتلألأ على محيّاك !

— فيم سؤالك إذن عما يحتويه جيبى ؟

— ليطمئنّ قلبى !

— ماذا تريد منى ؟

— ألا يهفو فؤادك إلى أن تكسبَ الليلة « ريالا » ؟

— من يزهدُ فى « ريال » ؟

— إذن هيَّا بنا . . . عِدْنِى أن تحقق ما أرغب إليك فيه !

— لك ما تشاء !

فى هذه الأيام كانت « القاهرة » قد أضافت دَعِيًّا من أدعياء العلم ، ومُشَعْوِذا من مشعوذة الفن ، يعرض على الجمهور فى أحد المسارح المعروفة ضروبا من التنويم المغنطيسىّ والكشف عن سرائر النفوس . . . وكان من خفايا البرنامج أن يَدُس هذا الرجل بعض أعوانه بين مقاعد النظارة ليعوِّل عليهم فى الاستجابة له والتأثر به أثناء قيامه بالشعوذة والتمويه . . . وكان يرسل من يتصيّد له هؤلاء الأعوان من القهوات وأندية الليل ، فشاءت العناية الإلهية أن يكون « نجيب ريحانة » فى هذه الليلة كَبْشَ الفِداء !

وتلقى الشاب من المشعوذ تعليماته ، وانحشر بين المتفرجين كأنه واحد منهم . . . وكان البَرْنامج أن يتقدم الشاب يعرِض نفسه على المشعوذ ليُجْرِى عليه تجاربه ، فاعتلى مِنصة المسرح أمام جمهور زاخر متطلع إلى ما يكون ، وطفِق المشعوذ يُجْرى عليه إيهامات التنويم ، فقام الشاب بدوره المتفق عليه فى أسلوب طريف وحركات متقنة أثارت إعجاب الجمهور ، وأرادته على الضحك والمراح . وما لبث النظارة أن احتدّ تصفيقهم ، ونَسُوا أنهم يتطلعون إلى واحد من المتفرجين ، لا إلى ممثل يقوم بدور ينتزع الضحكات

صدرَ الشاب عن المسرح يفكر فى شأنه ، وما مر به الساعة من أحداث . . .

لقد نهض بتمثيل دوره ، لم يبذُلْ عناء ، ولم يتصنع موقفاً ، وإنما ترك نفسه على سجيَّتها فى غير تكلف ولا تعمّل ، فكان ماشهده من توفيق لم يظفر به من قبل وهو يبذل قُصارى الجهد أثناء تمثيله أدوار المآسى والفواجع !

فقَرَّ فى ذهن الشاب أن أقوى دِعام النجاح فى التمثيل هو الارتكاز على الطبع ، ومجانبة التصنُّع ، وتوخى الصدق فى الأداء ...

وفطن إلى حقيقة عَزَبتْ عن باله ، فيما مضى من أيامه ، تلك هى أن له موهبه فى أداء الأدوار التى تقوم عليها المهازل والأفاكيه ، ففى مِزاجه الرُّوحىّ استجابة لهذا اللون من الفن التمثيلى الجميل .

ولطالما كانت جِسام الحقائق رَهْنَ ملابسات الحياة وسوانح الأحداث ، لاتتكشف قسراً بالقصد والالتماس ، قَدْرَ ماتتكشف اتفاقا واعتباطا فى مَجْرَى الشئون !

واعتاد الشاب ، قهوة الفن ، يقضى سهراته فيها وهو يفكر فى جديد كَشْفِه عن خفايا موهبته ، وعما يتطلبه التمثيل الحق من التزام الصدق فى الأداء ، والحذر من تزوير المواقف والانفعالات .

وماهى إلا أيام حتى دُعِىَ إلى المشاركة فى التمثيل عضواً فى

فرقة جوّالة ، فاشترط أول ما اشترط أن يُبَاعَدَ بينه وبين مواقف الجد وأدوار المآسى والفواجع . فنزلت الفرقة عند شرطه ، ووكلت إليه ما رغب فيه من هزلىّ الأدوار ، فأصاب فيها موفور النجاح ، وقرّ فى ذهنه أنه لم يُخلق إلا للاضطلاع بهذه المواقف ذات الطابع الفكه التى تثير حولها زوبعة من التضاحك .

وعجب أول الأمر من أن هذه المواقف على بساطتها ونزولها فى المحل الثانى هزمت أمامها مواقف البطولة الحافلة بالشئون الخطيرة والأقدار الحاسمة ، تلك المواقف التى تدوّى فيها أصداء الصراخ والضجيج ، وتنهمر حولها شآبيب الدموع ... !

ولقى الشاب من رفاقه فى الفرقة غير ما كان يتوقع ، فقد تنكّروا له ، وازورّوا عنه . ولم يلبث أن تعالى حوله فحيح الدسائس والأضغان .

ويوما وجد الشاب نفسه قد أُلقِىَ إليه أجرُه آخر السهرة ، مشفوعا بالرجاء إليه ألا يعود ...

فأدبر عن الفرقة ، تتخايل على فمه ابتسامته الفلسفية الخالدة ! والتقمته «قهوة الفن» يجلس فيها جلسته المعهودة ، ملقيا ظهره إلى الكرسى فى غير اكتراث ، محدقا فى السماء يستكنه فى أبراجها خوافى الغيب ، ويتعجب من تصاريف القدر وطبائع البشر ، مناجيا نفسه بقوله :

أخرجني الإخفاق من الفرقة الأولى ، وأخرجني النجاح من الفرقة الأخرى ، فالإخفاق والنجاح سيّان فى هذه الحياة الحمقاء ، وهأنذا أصير منهما إلى معدة خاوية !

وليلة بينما كان غريقَ هذ العباب من التفكير ، أحسَّ قدوم رفيقه «عزيز عيد» . . .

دخل بقامته القميئة ، وعوده الضامر ، تسوقه خطاه الشاردة ، وهو يتلفت حوله لفتاته الذاهلة ، وعلى صلعته اللامعة تنعكس الأضواء . . .

فأقبل على صديقه الشاب يحييه تحيته الحالمة ، ثم اتخذ مقعده عن كثب منه ، ومالبث أن قال كأنه يحدث نفسه ، دون أن يواجه الشاب بقوله :

فيم تفكيرك ؟

فأجاب الشاب ، ونظره عالق بأبراج السماء :

أفكر فى ذلك النحس اللجوج الذى يتعشقنى لوجه الله !

فنهض «عزيز» يذرع أديم القهوة بخطاه المترهلة ، ويداه معقودتان إلى ظهره ، وظل وقتا فى جيئة وذهوب ، وإذا به يقف أمام الشاب يحدق فيه ، ثم صاح :

ما اسمك ؟

ففغر « نجيب » فاه من عجب، وقال له متضاحكا :

أحسبت لى فى كل يوم اسماً جديداً ؟ !

— أجبنى فى غير مجادلة .

— اسمى « نجيب » .

— أكمل اسمك ...

— « نجيب ريحانة » .

فضرب « عزيز » بيده كتف الشاب ضربة أزعجته، وقال :

تلك هى المسألة كما يقول « شكسبير » .. إن لى فى النحس والسعد رأياً لايخيب، وأنا زعيم لك بأن فى الأسماء أسرارا كطوالع الأفلاك ...

— لا أدرى إلى أين تذهب بى وبك فلسفتك العرجاء !

وانطلق الشاب يقهقه، فبدا « عزيز » فى وقفة جدّ واهتمام، وقال :

الموقف لايحتمل هزلك الرخيص ... قولٌ فصْل ... إن أردت النجاح فغيّر اسمك ... لاأقصد تغيير اسمك كله، ولكن بعض التعديل ... وبعبارة أخرى : يجب أن نخرج اسمك إخراجاً جديداً ... لقد اخترت لك اسم « الريحانى » بدلا من « ريحانة » . فى كلمة « الريحانى » رفعة وجدّة وفنّ ...

فصاح « نجيب » :

لقد أَنَبْتُكَ عنى فى تغيير اسمى ، فافعل به مابدا لك . . .

— حسناً . . . استقبل منذ اليوم بواكير سعدك !

وأدار « عزيز » أحد المقاعد ، وجلس عليه ، واضعاً ذراعيه على ظهر المقعد أمامه ، وقال :

علينا أن نساير الزمن ياصديقى .. الاسم الفنى ذو الرنين اللطيف يجب أن يحل محل الاسم العتيق الذى سحب عليه الزمن ذيله !

واندفع يلقى على صديقه محاضرة فى فلسفة الأسماء ، وصلتها بالفن ، وما لهذا كله من حظوظ فى السعود والنحوس !

أصغى « نجيب » لهذه المحاضرة ، وانتهى به الأمر إلى التثاؤب والتمطّى ، وخشى أن يسقط رأسه تحت وطأة النعاس ، فبذل مابقى من جهده فى قوله :

ألا تخبرنى ما هو كسبى من تغيير اسمى ؟

فوقف « عزيز » منتفخ الوقفة ، وقال :

أول الغيث أنى مُلْحِقُكَ بفرقتى التى أعمل على تأليفها . . .

فطار النوم من جفنى « نجيب » وأقبل على صديقه يسائله فى شأن تلك الفرقة المنشودة ، وما يُعِدّه من بَرْنامجها الفنى فى عالم التمثيل .

ألّف « عزيز » فرقته التمثيلية الهزلية الجديدة ، فسطع فيها كوكبان : « روزالى يوسف » و « نجيب الريحانى »

وكانت الروايات التى تعرض على المسرح مهازل مترجمة من نوع « الفودفيل » ، فاجتذبت الفرقة جمهور النظارة على اختلاف طبقاته ، وأصابت بادئ الأمر نجاحا كاد يخمل الفرق الجدّية الوطيدة .

ولكن ثمة عامل دفين وقف تيّار هذا النجاح ، ولم يكن ذلك العامل وليد منافسة أو مناوأة من العُدَاة والحسّاد ، وإنما كان مرجعه إلى جرثومة النحس التى اتخذت من « عزيز » مَرْتَعاً خِصْبا تنمو فيه وتترعرع . . . ولقد كان « عزيز » يطارد هذه الجرثومة فى نفوس رفاقه ، بَيْد أنه كان ينسى نفسه ، ومن ثم لقيت الجرثومة فى تلك النفس ملاذَها الأمين !

وحان الوقت الذى ينفرط فيه عقد الفرقة ، فألفى « نجيب » نفسه يتبوأ عرشه العتيد فى « قهوة الفن » يسرّح بصره فى الفضاء العريض ، وينفُذ بأنظاره بين أبراج الفلك ، متصفحاً ذكريات لياليه فى فرقة « عزيز » وما تهيأ له فيها من تجلية وانتصار .

وعلى الرغم من أنه كان يقضى أيام تعطل وفراغ ، فقد كان مؤمناً بما بشّره به « عزيز » حين أراده على تغيير اسمه ، إذ قال له :

استقبل منذ اليوم بواكير سعدك . . .

كانت « مصر » لهذا العهد ، تخوض محنتها الكبرى فى الحرب العالمية الأولى ، تعانى أزمات نفسية صِعابا من الحماية الإنجليزية وما إليها من ضائقة وضغط وحكم عُرْفِىّ وامتهان للكرامة الوطنية وحقوق البلاد . . .

وكان المسرح المصرى فى أغلب الأمر بمَعْزِل عن الاستجابة لما يموج فى الأمة من تأثر وانفعال ، وإلى جانب ذلك لم يكن للمسرح من طابع إلا طابع الجِـدّ والتزمت والوقار . . . وجلّ مايعرض من الروايات أجنبى الروح من نتاج الترجمة ، ليس فيه مايتصل بأهواء الناس ، أو يسرّى عنهم فى محنتهم النكراء .

فصدف الناس عن المسرح الجِدّىّ ، وتركوه قاعا صَفْصَفاً يعانى الركود والكساد !

وهنا رأينا « الريحانى » يشقّ ميداناً جديداً دفعته إليه يد القَدَر ، أو قُلْ بصيرته النيّرة التى فطنت إلى مايعتلج فى نفسية الجمهور من مطالب ومَنازع ، فظهر فى منظر مصرىّ على أحد مسارح الاستعراض . . . وكان ذلك المنظَر ساذَجا فكِهًا قِوَامه بعض الشخصيات المصرية الصميمة ، يحتشد فيه خليط من أغان شرقية وغير شرقية . . . وابتكر « الريحانى » لنفسه تلك

الشخصية الطريفة، شخصية « كشكش بك » العمدة السادر الطروب!

فما لبث هذا المنظر أن أخذ بألباب النظارة ، وانتزع منهم عِصِيّ الإعجاب ، وكان فى ذلك ما أغرى « الريحانى » وصاحب مسرح الاستعراض بالتوسع فى المنظر ، والتفنن فيه ، وتعهُّده بألوان التجديد المرِح ، وتغذيته بالأغانى الشعبية ، والمشاهد الراقصة، حتى طغى المنظر على المسرح كله، فأصبح رواية مستقلة تنفرد بالمسرح بطلها « كِشْكِشْ بك » وقِوامُها الفكاهة والغناء والرقص.

وأحسسنا أن نواة الملهاة المصرية الصميمة قد أخذت تتخلّق .

راع الجمهور أول ماراعه أن يشهد مواقف شعبية خالصة ، وشخصيات محلية واضحة ، منتزعة من صميم البيئة المصرية بلهجتها وعاداتها وما لها من طابع مخصوص فى معالجة الحياة ومعاناة العيش.

واستطاع « الريحانى » ببراعته الخلابة أن يجعل من « كشكش بك » شخصاً حيّا يفرِض وجوده فى محيط الناس، فيألفونه ويستجيبون له ، ويتابعون حياته وما فيها من مغامرات طريفة تُهْدِى إلى النفوس ضروبا من المتعة والسلوى !

ولعل استجابة الجمهور « لكشكشيّات الريحانى » ترجع إلى أن الناس كانوا وهم يشهدون « كِشكِش بك » يحسون أنهم يحيَوْن حياته المَرِحة الطروب ، ويتنفسون فى جوه الطليق ، فيجدون فى ذلك

بعض التسرية والخلاص مما يجثم على صدورهم من أثقال الضوائق والأزمات والاضطهادات.

وكان نجاح «الريحانى» حافزاً لغيره من رجال التمثيل على أن يقفوا أثره ويحاكوه فى ذلك اللون الطلى، ولكنهم لم يوفقوا توفيقه، ولم يستطيعوا متابعة السير كما استطاع. وإن كانت تلك المحاولات قد نبهت الأذهان إلى «الملهاة» المصرية والعمل على إقامة صرحها فى ميدان التمثيل...

وعرف «الريحانى» أن «كشكش بك» لا يمكن أن يكون خالداً، فما ظفر بالخلود كائن حى، فإن لم يتطور أو يتجدد حلت به الشيخوخة وأدركه البلى... ومن ثم رأينا «الريحانى» يساير الزمن رويداً فى مرونة وطواعية وتبصر، وإذا هو يتخفف من مشاهد الاستعراض الغنائية الراقصة، مقتحماً ميدان الملهاة بعناصرها المتماسكة.

وها هو ذا اليوم تنتهى إليه بحق إمارة الملهاة فى الشرق العربى غير منازع!

ليس من دقة القول أن ندعى أن «الريحانى» بلغ الغاية التى إليها يتشوف طلاب الفن الرفيع فى هذا اللون من المسرحيات المصرية الصميمة، ولكنه يمضى فى الطريق موفور الجهد، موفق

الخَطْو ... يقدّم إلى جمهوره المولع بفنه لونا من الملهاة المصرية حافلا بالتسلية والإيناس ، نابضا بالحياة فى الأحداث والأشخاص ، عامراً بالنقدات اللاذعة للمجتمع والناس .

ولا ننسى أن موضوعات رواياته التى يكتبها هو وشريكه الأستاذ « بديع خيرى » مقتبَسة من أصول أجنبية ، غير أن طريقة « الريحانى » فى الاقتباس والإخراج خليقة بالحمد والإطراء .

فهو ينتزع الموضوع الأجنبى ، ويلقى به فى بُوتَقَةِ فنّه الخاص ، ثم يصهره ، ويصبه فى قالب جديد ، صميم فى مصريته ، صادق فى تعبيره ...

فالاقتباس عنده نحو من الاستلهام والاستيحاء ، وقليلا ما نحس بأن ثمة اتصالا بين موضوع رواية « الريحانى » والموضوع الأصيل الذى كان مورداً للاقتباس .

ولا ريب أن تمصيره أقرب إلى التأليف منه إلى المحاكاة والتقليد .

استهلّ « الريحانى » عمله الفنى مصريا شعبيا غاليا فى شعبيته ، وأفضى به الأمر فى الموضوع والإخراج والتمثيل إلى مرتبة يَأنَس بها الخاصة ، ولا يَرَوْنَها بمنأى عن مستواهم الفكرىّ ...

أما تأديته لأدواره بوصفه ممثلا ، فتلك هى بيت القصيد من فن « الريحانى » الظريف !

إنه إنسانيّ فى أدائه للمواقف ، ومجابهته للملابسات ، فتحس بأنه قطعة حية منتزعة من الواقع المشهود .

يسايرك بعد خروجك من المسرح ، كما عاش معك أثناء وجودك فيه ، فليس هو تمثالا خَزَفِيًّا يتحرك على المسرح ، بِلَوْلَبٍ مُدَار ، لا يلبث أن يسقط حُطَاماً حين ينزل الستار !

وربما كان توفيق « الريحانى » فى تأديته لأدواره يرجع إلى الملاءمة العجيبة بين شخصيته الواقعية وتلك الشخصيات التى يمثلها على منصة المسرح ، ولا يعيا « الريحانى » بأن يوفر لفنه تلك الملاءمة ، فهو يصوغ مسرحيته بنفسه ، ويشاطر فى تأليفها وحبكها وتصريف مواقفها وتدبيج حِوارها طَوْعَ نزعته ووَفْقَ هواه .

وفى حِسْبانى أن نجاح الممثل فى أداء أدواره يرتكن فى الغالب من الأمر إلى أحد عاملين :

الأول : الملاءمة بين الشخصية الطبيعية له والشخصية الوهمية التى يؤديها .

والعامل الآخر أن يكون الممثل فى واقع الحياة عاجزاً عن تحقيق شخصية معيّنة ، توّاقا إلى أن يكونها ، فإذا ما راح يمثلها وَهْماً على المسرح ، برع فى تمثيلها ، تنفيساً عن حرمانه ، وإرواء لغليله ، فكأنه يحقق فى عالم الخيال ما نصبو إليه نفسه فى عالم الواقع المحسوس .

وقد ارتكن « الريحانى » فى توفيقه إلى العامل الأول ، وهو عامل الملاءمة . . .

ليس ثَمَّة كبير فرق بين « الريحانى » الأريحىّ الوَهّاب المِتْلاف ، ذى النزعة المَرِحة الضاحكة ، وبين « كشكش بك » فيما تجلّى لنا على المسرح من مغامراته اللاهية .

« للريحانى » فى الحياة فلسفة تستند إلى دعامتين :

الأولى :

أَنْفِقْ ما فى الجيب ، يأتِكَ ما فى الغيب .

والأخرى :

تَغَدَّ الدنيا قبل أن تتعشّاك .

أطال الله غَداه !

إلى "موباسان"

صديقي الكبير :

هذه رسالة يخطها إليك امرؤٌ مُقِرٌّ لكَ بالجميل ، معترف بحسن الصنيع ، حامدٌ لكَ طِيبَ الصحبة منذ ثلاثين عاما أو تزيد.

كنتَ أول من طالعنى فى فتوة السنّ ، وعنفوان الصبا حين انطلقتُ أقرأ ما يقع لى من أدب الغرب ، فأنا اليومَ أُفصِحُ لك فى هذه الأوراق عن سر علاقتى بك ، وأبسُطُ ما تكشَّفَ لِي من بديع فنك .

ما أَنْسَ لا أنسَ باكورة لقائى إياك فى مكتبةٍ هنالك «بالإسكندرية» فى يوم من فصل الصيف .

كان من عادتى أن أقضى الضَّحَوات فى مَشْرَب ساذَج ينظر إلى البحر ، أنعم بجلسات رَخِيَّةٍ هنيَّة فى رُفْقَةِ طائفة من الصحف ، وأنا أستمع فى الحِين بعد الحين إلى ثرثرتها فى

مُشكُول من أنباء الحرب العُظمى وأطراف من شئون الناس .

وساعة ضقتُ ذرعاً بثرثرة رُفقتى من الصحف ، وهفت نفسى إلى أن أنجو بها من جعجعة الطعان وفضول الأخبار إلى أفق أصفى وأنقى وأرحب ، إلى أفق الأدب الرفيع .

وكان لا بدّ لى أن أتخيّر رائدا يخطّ لى الطريق ، ويضىء لى جوانبه ، رائداً يُحسنُ التودُّدَ إلى نفسى بحديثه ، فأحسن الإصغاء إليه . ولا أملّ الوعْىَ لما يقول .

وبغتةً نهضتُ من المشرب أطلب إحدى المكتبات ، وسَرْعانَ ما وجدتُنى بين تلال تلك المدينة العجيبة التى تتألف طِباقُها من أذهان وعقول . . . إنها لمدينة تزْخَرُ بحُشُودٍ من المواهب والكفايات والجهود ، وإن أهليها ليبادلونك التناجى بحديث صامت خفّاق ، ينفُذُ من الشّغاف حتى يبلغَ أعماق السرائر .

شبيهةٌ تلك المدينةُ بمحرابٍ قُدُسىٍّ تنتقش فى جوانبه صور حية من قرائح البشر ، ومشاهد خالدة من تاريخ الفكر عند الإنسان .

وبينما أنا مأخوذ أقلّب النظر فى ذلك المحراب ، وأتصفح

ما حواه من صور ومشاهد ، أحسستُ بك أيها الصديق الكريم تتدانَى منى ، فتضع يَدَك ملاطفا على كتفى ، كأنكَ قد فطنْتَ إلى حيرتى ، فأسرعتَ تأخذ بيدى ، لتهديَنِي الطريق .

رأيتك تدنو قوىَّ البِنية ، صُلْبَ الخطا ، وعيناك يَشِعُّ منهما ضياء ثاقب لا تمتنع عليه الحُجُب .

رأيتك تتخايل على فمك بَسْمَة يالها من بسمة ، هى بسمة الشمس يَنْفُذُ رفيفها من بين الغمائم ، غمائم التشاؤم والأسى والاستيحاش .

وما إن تطارحْنَا التحايا ، حتى توَافَقَ رُوحانا ، فمضينا فى الطريق جنبا إلى جنب ، وإذا نحن نقصِد المَشْرَبَ المعهود ، ولا يكاد يستقرُّ بنا المجلس حتى تبدأ حديثك ، فأوليك سَمْعا مَشُوقا .

إنك لتتحدَّث حديثا عَجَبا ، يَقْطُر عذوبة وصفاء ، وإنك لتتخذ أسلوبا لا يَرُوع بما فيه من تنميق العبارة وإحكام الصَّوْغ ، وإنما يَرُوعُ بما يَسْرِى فيه من حيوية وحَمِيَّةٍ كأنهما تَيَّار كَهْرَبِىٌّ !

وطفِقتَ ترسل القول دَفَّاقاً كغوارب الموج ؛ فكدتُ

أرميك بالثرثرة . ولكن لله أنت من ثرثار غيرِ مسئوم ، تبسُط العواطف مختلفةً ألوانُها ، وترسمُ الصور أنواعا وأفانين ، وتجلو الشُّخُوصَ طبقاتٍ شتى وأوضاعا متباينة ، ولا تألو جهدا فى البسط والرسم والتجلية ، على حين تطلق الضحكات رَنَّانة سادرة ، فإذا أنا أرى سُوقَ الحياة ومعترك العيش سطورا وكلمات كلها صدق وإخلاص !

وتوالت جلساتنا الصافية فى ذلك المَشرَب ، تطول يوما بعد يوم ، فتوثقتْ بيننا الصلة ، واستحكم التعارُف ، وأصبح لتلك الصَّيْفةِ التى جمعتْنى بك ذكرى كريمةٌ ما برحتْ تلمَع فى خاطرى على الرغم من كرّ السنين .

وأذكر أنى ملتُ عليك مرةً أسألك :

« أىُّ الأشياء أكثر شُغْلا لك فى الحياة ؟ »

فأجبتَنى جَهِيرَ الصوت :

« ليس يشغلنى ويملك علىّ أقطار نفسى إلا شىء واحد ، هو حبُّ الحياة ! » .

وأمسكتَ بكفى تضغطها ، وأنت تطوف ببصرك حوالَيْكَ ، وانبريت متحمساً تقول :

« انظر إلى الحياة ما أجملها . .

إنه لحبيبٌ إلىَّ كل شيء فيها جل أو حقُر . . .

من إنسانها العملاق إلى النبتة التى لا يكاد ينشقُّ عنها أديم الأرض . . . »

ثم استويتَ فى مجلسك ، مُلقياً بنظرك فى الأفق، وضَّاح الجبين ، تقول :

« أُحِبُّ السماء كحبِّ الطائر لها !

أحبُّ الغابة كحبِّ الذئب الذى يرتع فيها !

أحبُّ الصخرة كحبِّ الوعل الذى يتخذها له ملعبا ! »

ولقد بعثنى حبُّ الحياة على أن أَكْتَنِهَ خوافيها ، وأَسْبُرَ أغوارها ، وأقتحم معاقلها الصِّعاب .

ومعنى الحب عندى هو الرغبة العارمة فى الامتزاج والفناء فيما هو محبوب ، ومن ثَمَّ استرسلتُ أمتزج بتلك الأمواج الزاخرة التى تضطرب فى محيط الحياة ، أعلو على مُتونها تارة ، وتهبِط بى إلى الأعماق أخرى ، لا أَضِيق بشيء مما يكون ، ولا أنشُدُ الاستقرار على حال مما يجرى ، فقد فَنِيتُ فى هذه الحركة الدَّءوبِ كل الفناء !

غَفَرَ الله لهذه الحياة !

شدَّ ما تشبثتُ بها ، فنبذَتْني بعيدا .

بدأتُ أيامى تلميذَ مدرسة يستجيب انزعات نفسه الطليقة ، ولا يملك عنها مَحِيدا ، فضاقتْ المدرسة بقصورى فى طريقها المرسوم . . وما هى إلا أن ألفيتُنِى طريدَ التعليم !

وكنتُ فى الريف ، أرتع فيه وأمرح ، أحيا مع الزُّرَّاع ، أُداخلهم فى منازعهم ، وأطالع رسومهم فى معايشهم ، وأجد فى ذلك أُنساً وسلوى ، ولكن الريف ضاق بى ، إذ كنتُ آخُذُ منه لا أُعطيه ، فما هى إلا أن ألفيتُنِى طريدَ الريف !

فقضيتُ حقبْةً من حياتى موظَّفاً احْسَبُ فى النَّكِرات ، موظَّفاً غير ناشِطِ العمل ، ولا مجتهدٍ فيه . . ولكننى على الرغم من خمولى وكسلى فيما يُلْقَى إلىّ من مقتضَيات الخِدْمة ، كنتُ لا أملُّ الاختلاط بالرفاق من الموظفين ، أتدسّسُ إلى دخائلهم ، وأتعرف خصائصهم ، وأجد غاية الائتناس فى استجلاء ما يدور بينهم من أسباب الحياة . ولكن الوظيفةَ تأبَّتْ أن تحتمل منّى النقيضَيْن من إهمال وفُضُول ، فإذا أنا طريدُ الاِستخدام !

وما إن تركتُ الوظيفة حتى وجدتُنِي أقتحم معاقل « البرجوازيين »

فعَشِقتُ حياتهم ، وتذوقتُ مُتعَهم ، وقارفت معهم أخلاط اللذائذ والآثام . . . وكلما أوغلتْ بى الأعوام فى ذلك المعترَكِ ازددتُ اغترافا مما أرى وما أسمَع وما أحسّ ، وكان ذلك يُلهِبُ فِىَّ الشغف بالحياة ، والرغبة فى المَزيد .

أحببتُ فى الحياة مُتعَها أشكالا وألوانا ، فأغرقتُ نفسى فى لجة الحِسّ : هَصَرْتُ القدود جُهْد ما أُطيق ، واعتصرتُ الكئوس اعتصارَ ظامىء لا يَرْوَى له غليل ، وفَزِعْت إلى المغَيِّبات أستكملُ بها وسائلَ التحليق فى آفاق الخيال .

بَيْدَ أنى كنت آنَسُ من الحياة إباءً علىّ ، وتملُّصاً من بين يدىّ . ولم تكذِبْنِي الأيامُ ظنى ، فإنى لم أكد أتجاوز الأربعين حتى انفصم ما بينى وبين دنيا كم من أسباب ، ولم يبقَ إلا أن أتخذ لى سكنا فى تلك المدينة العجيبة ، مدينة الأوراق !

يالها من غرائب ومفارقات ! حبى للحياة هو الذى حرمنى دوام وِصالها ، وولعى بِمُتعِها وأطايبها هو الذى حال بينى وبينها !. كلما هِمْتُ بها صَدّت ، وكلما ملت إليها بَعُدَتْ .. فلا بِدْعَ أن أحقِدَ عليها حقدا مريرا ، حقدا يخالط ذلك الحبَّ المكين كما يخالط السمّ المُنْقَعُ رطبَ الشراب !

وكنتُ أرى مجتمَع الناس تحكمه عادات ومعتقدات عليها غلائل فاخرة من نَسْج المخادَعة والرياء ، وكأن ذلك المجتمع سجن مثقَل بالسلاسل والأغلال . فتطلعتُ إلى حياة حرية وطلاقة ، وجَرَيْتُ فى العِنان جَمُوحا أحطم القيود ، لا يصدُّنى عائق عن الهدف المرموق . . فَنَضَوْتُ الأستارَ عن تلك الغرائز البشرية التى تعمل فى السرائر ، وتجعل من الخلق ألاعيبَ تبعَثُ السخرية والاشمئزاز .

وَرِيعَ المجتمَع مما جابهته به من مساويه ونزواته ، فصاح بى : مكانَكَ أيها السليط !

إلا أن ذلك المجتمع كان فى حقيقة أمره يُصْغِى إلىَّ ، ويقبل علىَّ ، وكأنه يستزيدنى مما كنتُ ألقى عليه الضوء من خفايا الناس !

ولكن الحياة الغَدُور أبتْ علىَّ مهلةً من العمر . أستوفى فيها مُرادَ نفسى من الكشف والإفصاح ، وإذا بمتع الحياة تسرى فى دمى سُمًّا زُعافا يهدّنى ويُشِيع فىّ الاضطراب ، حتى حل يوم كنتُ أشعر فيه أن عقلى يُنْزَف ، وأنه مُوشِكٌ أن يَنْضُبَ . . .

وأظلّني ذلك العهدُ المشئوم ، عهد الجنون ، ثلاث سنين . .

قضيتُها في وَقْدِ عاصفة هوجاء من رمال سُود ، فيها أضواء مروِّعة ، وأصداء مُدَوِّيَة . . عاصفة يأخذ حرُّها بخناقي ، ويسجُن أنفاسي ، على حين تنتظمني قُشَعْرِيرة ثائرة ، كأن جسدي على وِسادٍ من زمهرير !

وما تكاد تعاودني سكينةُ نفسي لحظات ، حتى يتقسَّمَني رعب وَهلعَ . إنها لحظات صَحْوٍ ليست أهون عذابا من هبوب تلك العاصفة الهوجاء . في لحظات صحوي كنتُ أتطلع إلى مَهْرَب من الآلام التي تَشْحَذُ لي سِنَانها ، ولكن أنَّى لي ذلك والإعصارُ الأسْوَدُ لي بِمَرْصَد ، وإنه ليُعِدُّ عُدَّته لاستئناف الهجوم ! ؟

تلك حياتي التي عشتُها ، قصصتُ عليك نبأها ، دون أن أتزيَّد أو أغلو . . . »

ولما بلغتَ أيها الصديقُ من حديثك هذا المَبْلَغ ، رأيتُك قد انكفأتَ تبكي أحرّ بكاء ، فكان منظراً عجَباً يا له من منظر !

أنت الجبـــار العنيد الذى طالما أضحكتَ وأبكيتَ ، وأعززتَ وأذللتَ ، تبدو متصاغرا أمام صولة الزمن ، كأنك طفل لا تملك إلا سَكْبَ الدموع !

ولمحتُ أوصالك تهتَزُّ ، فأقبلتُ عليك ألاطفك وأواسيك ، فإذا بك تستحيلُ بين يدىَّ رَمادا ، وإذا بهذا الرماد هَبَاء فى الهواء . . .

ووقفتُ أرقُب ذَرَّاتِ الرماد ، تحملها رِيحُ البحر إلى الشاطىء المجهول !

إلى "بلزاك"

أيها الزميل الكريم :

ومن أحقُّ منكَ بأن يتقبل ندائى إياه ، وأن تستجيب نفسه لرغبة كاتب على ضِفَافِ النيل ، يحاول أن يتطاول بصوته ليبلغ أفقك الرفيع ؟

من أحقُّ منك أيها الإنسانىّ الخالد ، الكبير قلبُه ، النبيل شعورُه ، الموفور عطفه على البشرية جمعاء ؟

من أحق منك بأن يأخذ بأيدى الكتّاب فى أشتات الممالك والأمصار ، مهما تبعُد بهم الشُّقَّة عن مَدَاك ، وتقعد بهم الهمة عن غايتك ؟

من أحق منك بأن يدنى إليهم أسباب مردته ، ووشائج عاطفته ، فيتسامَى بهم إلى ذِرْوَتِكَ السامقة ، يحوطهم بالبر الأبوىّ ، وَيَدَعُ لهم أن يلتمسوا من اسمه نَفْحة المجد والجاه ؟

إنى لأدعوك بالزميل ، وما بعثنى على هـــذا الدعاء إلا ذلك الرباط المقدس الذى يصل بين كاتب وكاتب ، وإن تفاوتت بينهما الأقدار .

وما كان أخلقنى بأن أدعوكَ الأخ الأكبر ، أو المواطنَ الأعز !

إنك ياصديقى لم تعد فرنسيّا محدودا بهذه الجنسية وحدها ، فأنت « مُوَاطِنٌ عالمىّ ، بحقّ .

لقد ابتغيتَ العالم كله لك وطنا ، ولقد اتخذت من البشر أجمعين مُوَاطِنِين ، وهذه نماذِجُك التى سوَّيتَهَا فى دنيا كتبك ليست إلا صورة مصغّرة لدنيانا التى نعيش فيها على اختلاف بقاع الأرض ، وتبايُنِ ألوان الناس .

ما قرأ لك امرؤ إلا استجابتْ نفسه لما كتبتَ ، وأحس أعمق إحساس بأنك لستَ عنه غريبا . فهو يرى فيك طيفَه ، كما يرى فيك أطياف مُوَاطِنيه ، حيثما كان .

ما قرأ لك امرؤ إلا نبتت بينه وبينك أُلْفَة تصل نفسَه بنفسِك ، وكأنه قد لقى بك مترجما أفصح منه لسانا ، يجلو له مشاعره أوفى جلاء . . .

أنت إنسان تتنازعك الأوطان والمواطنون .

كل قارىء لك يَدَّعيك لعشيرته وأرضه ، غير عاجز عن تأييد دعواه بالحجة والبرهان .

وهأنذا شرقيّ لا أجدك إلا شرقيّا حقا . . . لكأنك على ضِفاف النيل دَرَجْت ، وبمائه ارتويت ، ومن ثمره اغتذيتَ .

لكأنك استنشيتَ نسيم الشرق الشذِي ، ونَعِمْتَ بدفء شمسه الوهاجة ، وحَلَّقْتَ سابحا فى أخيلته الرحاب .

لستَ بشرقى محصور فى عصر بعينه ، ولا فى جانب مخصوص من جوانبه ، ولكنك رُوحٌ شرقية هائمة تجتاب الحِقَب ، وتنتظم الجوانب والأرجاء . .

إنى لأتمثلك « شهريار » آخر لعهدٍ جديد من « ألف ليلة وليلة » . . . أتمثلك ذلك السلطانَ الشرقىَّ الذى أهداه إلينا عالَمُ الأساطير ، وما برِحَ حتى اليوم يحيا بيننا على عرش الأحلام . .

ظل هذا السلطانُ يعيش للحبّ والمجد والطموح ، ويتقلب فى أعطاف الترف والبَذْخ والنعيم . . بَيْدَ أنك أنت « شهريار » من طراز أعلى وأنبل ، سلطان أقوى تَفَطُّناً لشئون رعيته ، وأحنىَ عليهم قلبا .

كان « شهريار » الأول يقضى كلَّ ليلة على نفس إنسانية بريئة ، بعد أن يعتصر حياتها . فأما أنت فكنتَ فى كل ليلة تَهَبُ الحياةَ للناس ضروبا وأفانين !

ولم تكن هِباتُك من فواضل ماتملك ، وإنما هى هبات تقتطعها من جوهر نفسك ، فكنت تعطى الحياة لهؤلاء الناس من حياتك ، وتُجْرى الدم فى شرايينهم من عروقك ، وتبثهم من رُوحك قَبْسةَ الرُّوح .

وبينما كان هؤلاء الناس يزدادون نُمُوًّا وازدهارا فى الحياة ، كنتَ أنتَ كالزهرة حين تَذْوى على مَهَل .

شتَّانَ ما بينك وبين « شهر يار » السالف ، فشعاره كان الأثَرَةَ والتدمير ، وشعارك هو البناء والفِداء .

ثَمَّةَ فارق بينك وبينه ، فإن متعته كانت فى إصغائه لما تقصُّه عليه « شهر زاد » ، وما أرْوَعَ ما كانت تقصُّه عليه من أحداث خلاَّبة يتفكه بها ويتسلىَّ . أما أنتَ فلا شأن لك بالإصغاء ، وإنما دَبُكَ التحدث ، والبشريّةُ كلُّها « شهر زاد » مصغيةٌ إليك ، مسحورة بما تسمع منك .

أمام عينىَّ طيفُك ، وأنت فى ردائك الأبيض الفضفاض ،

مُنْتَطِقٌ بتلك السلسلة الذهبية ، تجول قدمك فى خُفٍّ مُقْصَبٍ ، وقد تَبَوَّأتَ مقعدك الفسيح ، بادنَ الجسم ، ضخم الهامة ، يترسَّلُ شعرك الفينان ، وعلى وجهك المُطَهَّم تلوح الوداعة والسماحة والبِشْر . ومن لوامع نظراتك تنفُثُ سحرا يبهر الأعين ويأخُذُ بمجامع القلوب . وعلى مقربة من مجلسك تنبسط مائدة حافلة بالرحيق الفاخر والفاكهة الطيبة ، وأنتَ فى الفَيْنة بعد الفينة تتناول من هذا ومن تلك مالَذَّ وراق . متخذا كمالَ متعتك من أنفاس تَبغ « اللاذقية » ينشر سحائبه حاملةً إليك أحلام الشرق وأخيلته ، على حين تترشَّف من شاى « الصين » الذكىّ ، مُضَمَّخاً بعِطْرِ أباطرتها العِظام !

و نك إذ يستقرُّ بك المجلس على هذه الحال ، لَتَتَفَتَّقُ عبقريتك ، فينساب حديثك فياضا يستمع إليه الدهر ، وما يطيب لك أن تتحدثَ إلا إنْ تَغَشَّاكَ جوف الليل ، وَشَمِلَتْكَ هَدْأته ، فتظل آنساً بسهرك وسمرك ، حتى تَشْقَّ الغُبْشَةُ عن بَسْمَة السَّحَر !

حَسْبُكَ كلمة ترسلها ، أو إشارة تبديها ، فما هى إلا طَرْفة عين وانتباهتُها حتى تقوم المدائن بين يديك عامرة ، والناس شتى

من عِلْيَةٍ وصعاليك يتدافعون فى جَنَباتها مختلفةً بهم الأحوال والنزعات والأقدار .

لله أنت من ساحر ، تستعين على سحرك بألمعية خاطرك ، وحيوية ذهنك .. فإما كلّت بك القريحة ، وأدركك الإعياء ، فَزِعْتَ إلى أقداح القهوة الشرقية تَعُبُّ منها عَبًّا ، ولا تمل منها شربا ، لتوقد بها ما خمد من نشاطك وحميتك ، فلا تلبث أن تنعَم منها بنشوة وانتعاش .

عشتَ أيها الزميل الكريم عَيْشَ « شهريار » فى أطوار حياتك جمعاء ، يهيم بك الخيال فى كل واد ، ويستبد بك دائما عالم الأحلام .

ألم تكن فى سنِّ الغَرَارة تسمو بنفسك إلى صفوف الأساتذة ، وتَثِبُ إلى الشأو الأقصى فى ميادين الفكر ، فتكتب فى دقائق الفلسفة ، وتحاول أن تعالج « مشكلة الإرادة » ، على حين كان أترابك وقرناؤك يتعثرون فى إحسان قواعد الإملاء ؟

ألم تكن قادرا فى إبَّانِ فاقَتك على أن تُحِيلَ طعامك الغَثَّ طعاما طيبا لا غثاثة فيه ، وذلك بما كنتَ ترْسُمُه على المائدة من صحاف حافلات بمختلف الألوان ، فتكتسب المتعة والتلذذ على

الرغم مما أنت فيه من حرمان ؟

ألم تكن فى مطلع شبابك ، وأنت تأوى إلى غرفتك الصغرى فى الطبقة العليا من بيت متواضع ، تقاسى زمهرير الليالى الطوال ، وتعانى ظلمة الوحشة الكئيبة ، فما هى إلا أن يجوز بك الخيال إلى عالمك الآهل المأنوس ، تنعم فيه بالدفء والطمأنينة والأمان ؟ . . .

ألم يُتَحْ لك وقد بدأتْ الدنيا تُقْبِل عليك ، أن تملك دارا فيحاء أعددتَها لسكناك فى « سيفر » فأبيتَ إلا أن تجعلها قصرا من قصور « ألف ليلة وليلة » حالية بالرياش الفاخرة ، أرضها من المرمر اللؤلؤى ، وجُدرانها مُؤَزَّرةٌ بالخشب الثمين ، وقد تناثرتْ فيها ألواح الفن والجمال . وما كان فى مقدورك أن تجعل ذلك كله حقيقة واقعة ، ومن أين لك المال الطائل يفى بغرضك ؟ فأسعفتْكَ مُخَيِّلتك الرَّحبة تحقق لك ما تريد ، فجعلتَ تَخُطّ فى كل موضع من قصرك ما تصبو إليه نفسك من أثاث ورياش ، تخطه أسماء بلا مُسَمَّيات ، فإذا أنت سعيد بوهمك ، موفور التنعم بخيالك ، والدار أمام عينيك خاوية جرداء !

ألم تتوهم يوما أنك اهتديتَ إلى « الخاتم السِّحْرى » هِبَة

الشرق الحالم ، ذلك الذى يمنح صاحبه كل ما يهفو إليه فؤاده وإن عزَّ مطلبه ، فأردت أن تكشف به خفايا الكنوز فى بطن الأرض ، وعشتَ بهذه المُنَى زمنا رَغَدا ؟

ألم يُطَوِّحْ بك خيالك إلى « جِلْدِ الأحزان » المُرَقَّشِ بكلمات عربية ، ذلك الذى تمثلته جلدا سحريا عجيبا ، يكفل لصاحبه إنجاز مآربه ، بيد أنه كلما حقق مأربا تكمش وتقلص ، ونقص بقدر ذلك عُمْرُ من يملكه ، حتى يحين وقت لا يبقى فيه من « جِلْدِ الأحزان » ومن عمر صاحبه إلا بقية صغيرة ، تأتى عليها الرغبة الأخيرة ؟

ألم تكن طَوَالَ عمرك موصولَ الهوى بتلك الحياة الناعمة ، حياة الترف والسَّرَف ، تستدرّ اللذة والاستمتاع . وبين جنبيك تكمن روح ذلك السلطان الشرقى العتيد « شهريار » فانطلقتَ تطلب المال دَءوبا تلتمس إليه كل سبيل ، وكلما ازددتَ كسبا أمعنتَ فى الإنفاق إمعانا ؟

لقد أصبتَ من المال ما هو كثير ، ونعمْت من المتع بما هو غال نفيس ، ولكن المال لا يكاد يتجمع فى راحتك حتى ينزلقَ عنها انزلاق الزئبق ، فلا تجد بُدًّا من الإسراع إلى الدائنين ،

ليعينوك على أمرك بألوان القروض .

شدَّ ما هويتَ المال !

وشدَّ ما أزريتَ به !

هويتَه لأنه وسيلتك إلى حياة الرفاهة والنعيم ، وأزريتَ به لأنك أسرفتَ فى بذله غيرَ ضنين به ، ولا حريص عليه ، فعشتَ ما عشتَ لا تجعل للمال سلطانا عليك ، ولكنك تتخذ المال عبدا تصرفه كيف تشاء .

أيها الزميل الكريم :

ما أروعها حياة قضيتَها أنتَ فى دنيانا تلك ، على الرغم من ضآلة سِنيها الخمسين !

وهل تقاس حياة العباقرة بما قضَوْا من أعمار ؟

رُبَّ ساعة خاطفة يشق فيها العبقرىّ من آفاق الفكر ما تتقاصر عنه الآجال على تَرادُفِ الأحقاب !

كانت حياتُك أعمارا فوقَ أعمار ، فى كل لمحة تبعثها فى جوانب الكون ، وفى كل خطوة تمشيها على أديم الأرض ، تتفتح لك كنوز من أعماق الحياة ، زاخرة بأسرار النفوس وتجارب الناس ، وإنها لكنوز تتخطاها الأعين ، وهى فى غفلة عنها ، لا تُقيم لها وزنا .

حقا لم يكن عمرك فى حساب الزمن طويلا ، ولكن هذه الروائع المائة التى سطرتها يراعتك كانت سجلاً وافيا للبشرية يُدوّن أحداثها ويؤرخ أطوارها فى عهود ممدودة يقطع الزمن فى حسابها طوالا من الأعمار .

ولكن ثمة كتاب لم يجر بتسطيره قلمك ، ذلك هو قصة حياتك ، وإنه لقصتك الكبرى على وفرة ما أخرجت من قصص ، وكيف لا تكون القصة الكبرى وأنت بطلها الفذّ ؟

إنك لتجمع فى شخصيتك الواحدة مئات الأبطال الذين احتوتهم « ملهاتك » الإنسانية الخالدة .

فى شخصيتك الواحدة تزاحمت حياة أولئك الأبطال ، بما اعتلج فيها من نزعات ونزوات ، وبما توارد عليها من أفكار وأحداث ، فلقد انفسحت شخصيتك لذلك كله على ما فيه من تناقض واختلاف .

كنت أنت كل هؤلاء ، أفردتهم من دخيلة نفسك ، ونفخت فى كل منهم نسمة الحياة ، ودفعت بهم فى مسالك الأرض ، يستمدون منك العزم والفهم ، وتجرى أقدارهم بتدبير منك وتقدير . إنهم بضعة منك . وإن مردّهم إليك ، يتفانون فيك فناء

الصوفى ّ فى معبوده ، فما نورهم إلا قبسة من نورك الشامل العظيم !
ولقد كان عجَباً ما رأيناه منك أيها المعلّم غيرَه . . .

لقد علّمْتَ أبطالك حقائق الحياة ، وبصّرتَهم بالتقلب فى مذاهب العيش ، ووقفتَ بهم على كل شيء مما يلابسهم من حبٍّ أو كره ، ومن إقدام أو إحجام ، ومن هزيمة أو نصر . فلما نزلتَ أنت فى ملتَطم الدنيا ، تخالط الناس ، وتمارس ما يمارسه أولئك الأبطال ، لم يكن لك من حظ سوى الإخفاق .

خلقتَ لنا أبطال المال ، موفورةً خبرتُهم به ، وحُنْكتهم فى تصريفه ، ولكنك لما أردتَ أن تعالجَ هذه الشئون ، خرجتَ بِصفقة المغبون !

ويا طالما جلوتَ لنا أبطال حبّ وهُيام ، مفصِحاً عن سرائر المرأة ، متغلغلا فى طواياها ، وإذْ صَبتْ نفسك إلى مطارحة الغرام ، وقفتَ عاجزا أمام تلك القلوب التى شَغفتْك حبّا .

تُرَى ماعلة هذا التناقض بين الحالين فى شخصيتك العجيبة ؟

أنتَ فى عالمك الذى سوّيتَه بقلمك لم تكن إلا إلها ، فكيف يمارس الإله أوضاع البشر ؟

للإله سماواته وعروشُه ، فأما الخَلْق فلهم دنياهم يتقلبون فى جنباتها كما يشاءون ، ويعانون من أوضاعها ما يعانون . . .

كيف ينقلب الإله تاجراً من البَشَر ، يرضى لنفسه المماكسة والممارسة ، ويخوض مع الناس مزالق الأخذ والعطاء ؟

وهل يليق بالإله أن يقارب ذلك الحبَّ الأرضيَّ ، فَتتَعلَق بأذياله تلك الصغائر من غيرة أو مذلة أو إغراء ، على حين أنه هو ذلك الإله العظيم الذى يَعْمُرُ قلبَه الحبُّ الرفيع المُصَفَّى للخلائق أجمعين ؟

عشتَ دائماً فى عليائك ، تَسْبَح فى فيض زاخر من النور ، يُعْشِى بوهجه الأبصار ، ولكنه يزيدك تألقاً ونفاذ بصر .

على أنك لم تكن تنسى هذه الأرض ، فجعلتَ ترسل إليها من عَلٍ نظراتِ عطف وإشفاق ، ترعى بها من سَوَّيتهم من شخصياتك . وتستشفُّ بها تلك النفوس التى جُبِلَت من ماء وطين!!

لقد لبثتَ عمرك إلهاً فى ملكوتك الأسمى ، تحسن خَلْق شخصياتك ، وترسل بها تسعى على وجه الأرض . فإذا هى تدور من حولك كما تدور الكواكب من حول الشمس . . .

أيها الزميل الكريم :

ما أجدرنا نحن الذين نعالج فنّ القصة فى الشرق بأن نتخذك إماما . بيننا وبينك أُلفة حبيبة ، وتجاوبٌ مأنوس .

ما إن نطالع لك شيئاً إلا تردد صداه فى وليجة نفوسنا ،

وكان لإحساسنا مَثَاراً . . .

ولعلك أنتَ أقربُ كتاب الغرب إلى ما هو أصيل فى قلوبنا من ميول ومَنازع.

ما أشبهَ عصرك الذى شهدتَهُ بعصرنا الذى نعيش فيه هنا فى بلاد الشرق .

كان عصرك مِهْرَجانا « للرومانسية » بلغتْ فيه الذِّروة ، وأوفتْ على الغاية ، وتألق فيه الأمراء « الرومانسيون » : « هوجو » و « دى فينى » و « جورج صاند » و « تيوفيل جوتييه » إلى نظرائهم الأعلام . . . وفى مقدمة هذا الركب الحافل خَفَقَتْ خُطَاك ، ولكنك لم تشأ أن تَبقى على غِرارهم ، رومانسىّ النزعة ، خالصاً لذلك كل الخلوص ، أو بالأحْرَى لم ترض عبقريتك الفذة أن تخضع لذلك الأفق وحدَه دون غيره من الآفاق .

رأيتَ « الرومانسية » إغراقا فى الذاتيـــة ، وانطلاقا إلى المثَالِيَّة ، وإرخاء لعِنَانِ التعبير عن الإحساس إلى الشأو الأقصى ، فألفيتَ ذلك كله عائقًا لك عن الضرب فى ميدان أعمق وأعمّ ، فرجعتَ تحاول الفَكاكَ من قيود « الرومانسية » لتتصل بعالم الواقع ، تفهم الناس كما هم ، لا كما تهوى نفس الكاتب أن تراهم . فمزجتَ بين « رومانسيتك » وواقع الحياة . فكان مِزاجا

طريقا أرسيتَ به قواعدَ مذهب جديد ، هو مذهب الفن القصصى الذى استعلى فيما تعاقَبَ من العهود والأعصار .

ونحن أهل الشرق يزخر ميراثنا من الأدب العربى باللون « الرومانسى » الزاهى ، وإنّ تأثُّرَنا بهذا الميراث العتيد يجعلنا نحيا فى عصرنا الراهن « رومانسيين » أُصَلاَءَ . ولكن الدنيا من حولنا ترتمى فى عُباب الحقائق الواقعة ، فأحاط بنا الموج يدعونا أن نخوض الغِمَار ، وإذا بنا نتلفت التماساً لمن يعيننا على مسايرة التيّار ، فلم نجدْ أصدقَ منك عونا ، وأهدى سبيلا .

نحن قوم لانستطيع أن نجافى نَسَبَنا العريق فى « الرومانسية » ، ولكننا مع ذلك لانملك التخلف عن ركب التطور الأدبىّ الذى انتهى إلى المذهب الواقعىّ . فكنا أحوج ما نكون إلى الخُطَّة الوُسْطَى ، فوجدنا فيك مِثالَها ، إذ أَشْرَبْتَ « الرومانسية » روحاً من « الواقعية » ، فازدهر من بينهما نباتٌ جديد . . .

أيها الزميل الكريم :

لكأنك كنتَ بِظَهْرِ الغيب تُحِسُّ ماسيكون من آلفتنا لك ، وانجذابنا نحوك ، فعبَّرتَ لنا عن استجابتك لهذه الألفة وذلك الانجذاب ، إذ جعلتَ من نفسك أخاً رُوحِيًّا « لهرون الرشيد » رمزِ الطابع الشرقىّ فى أزهى عصوره .

حقا كان عهدك عهدَ تطلع الى الشرق ، وتشوُّف إلى اكتناه سحره الخلاب . . ولا ريب أنك عببتَ من أساطيره ماوَسِعك أن تَعُبَّ ، ولعلك التهبتَ شوقا إلى الحياة الشرقية بما حمله إليك من تراث الشرق رجال « نابليون » بعد عودتهم من أرض النيل .

عرفناك متعشِّقا « لنابليون » تتقصَّى أخباره وشئون أبطاله ، فهل استهواك مملوكه « رُسْتَم » فى لَبُوسِه المزركَش ، وشارته الطريفة ، وخصائصه الشرقية المتألقة ؟

وهذه البَعَثات المصرية التى نزلتْ يومئذ بلادَك ، وعاشت رَدَحا من الزمن بين مُواطنيك ، أكبرُ ظنى أنك قد ملأتَ منها عينك ، وأرْعَيْتَها سمعَك ، وفَتَنَكَ من طريف أخبارها وعجيب شخصياتها مافَتَنَكَ .

أيها الزميل الكريم :

لقد تميزت بين كتاب الغرب بتلك المَسْحَة الشرقية التى تجلتْ فيك ، ولم ينسَ لك الشرق هذه الوَشِيجَة . وإذا لم يتمثل وفاؤه لك فى نَقْلِ معظم آثارك إلى العربية ، فإن أهل الشرق طَلاَّعُونَ إليك فى اغتك ، يقرءون لك مفتونين بما كَتَبْتَ ، ولعلهم يؤثرون الاستمتاعَ بروائعك فى تلك اللغة التى تحمل ألفاظها قوةَ رُوحك فى مَنْبَعها الفياض ، وحرارة فنِّكَ فى جوهره الأصيل !

قصة "حافظ"

لا جدال فى أن « حافظا » الشاعر قد نبُهَ ذكره على « حافظ » الناثر، ولكن نثره — وإن كان فى الواقع أقلّ روعة من شعره — قد احتفظ — بالرغم من ذلك — بمكانة عالية فى الأدب العربىّ الحديث . يشهَد لذلك ثلاثة أعمال له ، الأول : رسائله التى كان يتبادلها هو وإخوانه الأدباء . وهى على قلة ما وصل إلينا منها تدل على مبلغ عنايته بالتعبير عن أفكاره الخاصة فى أسلوب عال جميل. وربما جاء من يكشِف لنا الغِطاء عن هذه الناحية المجهولة من حياة « حافظ » . والثانى : رواية « البؤساء » التى ترجمها بتصرف كبير عن « فيكتور هيجو » ، فى حُلّة عربية قشيبة تُحْتَذَى بلاغتها . والثالث : « سَطيح » . وهو كتاب قَصَصِىّ من مبتكَرات فكره ، طبع فى سنة ١٩٠٦ ، وهو موضوع هذا الحديث .

نرى مما تقدم أن « حافظ إبرهيم » قد خَصّ الفن القصصىّ

بمجهود يُذْكَر فى نثره ما بين ناقل ومؤلف ، فإذا أضفنا إلى ذلك عملين لهما خطرهما فى ديوانه ، وهما : « العُمَرِيَّة » و « جَرِيح بيروت » وجدنا أن مكانةَ « حافظ » ككاتب قصصى فى أدبنا العربىّ الحديث لا يستطيع أن ينكرها أحد ، و « العُمَرِية » قصيدة من نوع المَلاحم ، روى لنا فيها سِيرَة « عُمَرَ بنِ الخطاب » ومآثره . و « جريح بيروت » قطعة تمثيلية قصيرة تحدَّثَ فيها عن المأساة التى وقعت فى « بيروت » عندما هاجمها الأسطول الإيطالى فى حرب « طرابلس » .

ولما كان الوقت لا يتسع أمامنا للتكلم عن جميع مآثره القصصية رأينا أن نَقْصِر حديثنا على عمل واحد له ، هو « سَطِيح » .

و « سطيح » فى نظرنا يعبّر أدق تعبير عن مجهود « حافظ » فى فن القصة النثرية .

ولا بد لنا قبل الكلام على « سطيح » ، أن نأتىَ بمقدمة عن القصة فى عصر « حافظ » ، وقبله بقليل .

كان من مآثر عصر النهضة — الذى يمكن تحديده تحديدا عاما بدخول الفرنسيين « مصر » — أن ظهرت أخيرا القصة العربية الحديثة . وواجبُ الإنصاف يقضى بأن نقررَ أن الأذهان فى

« سورية » تهيأت لمعالجة القصة قبلنا على أثر قدوم الإرساليات الدينية الإفرنجية وتشييدها المدارس والجامعات مقدمة إلى أدباء « سورية » لونا طريفا من الأدب الأوربى الجديد. فأول من كتب فى القصة الحديثة إخواننا السوريون . وكان العاهل الأكبر « محمدُ علىّ » قد أولى العلوم والصناعات عنايته ، فأرسل مختلف البعوث إلى « أوربة » ، فلما عادت تلك البعوث نشطت الحركة العلمية فى « مصر » ، وخلقت جوا جديدا لنهضة علمية عملية . وكان للأدب نصيب فى تلك النهضة ، ولكنه لم يكن بالكبير. فلما تولى « إسماعيل » العظيم ، وشمل الأدباء برعايته ، وخصّهم بوافر عطاياه ، ازدهرت الحركة الأدبية وأينعت ، وظهر من أرباب الأقلام فوْج جدير بالذكر والاعتبار . أضف إلى ذلك نزُوح فئة من أدباء السوريين إلى « مصر » أرادوا أن يحتمُوا فى ظل « إسماعيل » وينالوا من خيره . وكان احتكاك الشرق والغرب فى ازدياد ، وهمّ « إسماعيل » الأكبر أن يصلَ بين الحضارتين ، ويجعل من « مصر » دُرّةً فى جبين الشرق العربى تمثّل ثقافة الغرب ومدنيّته . وسُرْعانَ ما رأينا القصةَ ترفعُ هامتَها على أكتاف طائفة صالحة من المترجمين والمؤلفين .

ولما كانت الثقافة العربية القديمة ما زالت متمتعةً بنصيب وافر من السلطان ، أراد بعضُ القَصَصيين أن يوفقوا بين القصة الغربية والقصة العربية ، التى هى من الفن القصصى الحقّ فى حالة بُدَائية ، فكان نتاج ذلك شيئا يماثل المَقامة . والمقامة فى ذلك العهد كانت تمثل القصة العربية فى الأدب العالى الرفيع ، لسموِّها لغةً وأسلوبا عن قصص العوامّ ، أمثـــال « عَنْتَرَ » و « أبى زيد الهِلالى » وما ماثلهما . وإن كنا نعتبر هذه القصص العامية طريفة من ناحية الخيال والحِوار اللذين هما من أصول القصة فى معناها الكامل . وقد سبق أن عالج هذا التوفيق بين القصة الغربية والقصة العربية « محمد المُوَيْلِحِىّ » فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » .

ولكى نفهم « سَطِيحًا » حق الفهم ، يجب أولا أن نتمثل معنى المَقَامة . فالمقامة هى المجلس يجتمع فيه الناس حول محدِّث يتنقل بهم فى مختلف الشئون من علم وأدب وقصص وسِيَر . وهذا المحدِّث فى الغالب من الأدباء المستَجْدِينَ يتكلم بلغة فصحى ظاهر فيها التعمُّل والصناعة اللفظية . و « الهَمَذانى » من أشهر كُتَّاب المقامات ، كتابه مجموعة حكايات قصيرة مسجوعة انتزعها من الحوادث التى وقعت له أو شاهدها أو تخيلها أثناء رحلاته الكثيرة

فى بلاد « خراسان » وما جاورها . وقد نسب روايتها إلى رجل سماه « أبا الفَتْح الإسكندرىّ » ، يمثل شخصية الأديب المستجدى فى ذلك العصر . ويظهر أن استجداء الأدباء كان أمراً ذائعا . وكانت حِيَلهم معروفة لدى « بديع الزمان » . وقيل إن شخصية « أبى الفتح الإسكندرى » لم تكن غير شخصية « بديع الزمان » نفسه . والتشابُهُ بينهما تام من ناحية الاستجداء بالأدب وكثرة الارتحال من بلد إلى بلد. والمقامة تنتهى دائما بعبرة أو موعظة أو نُكْتة . وغايتها قبلَ كل شىء التفنن فى أساليب الإنشاء وتضمين الأمثال والحِكَم ، وسَرْدُ الطريف من الأوصاف . فلم يكن للفن القصصى فيها شأن يذكر . وهى بالاختصار مقال منمَّق فى مختلف الموضوعات على صورة فُكِهَة مسلية .

وقد نشأت المَقَامة فى الأدب العربىّ من تأثر الحياة العربية وآدابها بحياة الفرس وآدابهم . واشتهرت طائفة من كتاب ذلك العصر بالترجمة من الفارسية . ومنهم « بديع الزمان » نفسُه .

ولْنَعُدْ الآن إلى « سَطِيح » ، فنقول إنه كُتِب على نَمَط المقامات ، تأثر فيه « حافظ » بما كتبه « المويلحى » فى حديثه « عيسى ابن هشام » . وهذا التأثر الشديد يبدو واضحاً فى الوضع الذى عالج فيه « حافظ » نواحى « سَطِيح » ، بل لقد بلغ تأثره بذلك

الكتاب أن أورد فى مؤلفه فصلا كاملا مما كتبه « المويلحى » فى حديثه . وهو الفصل الخاص بحديقة الحيوان التى كانت فيما مضى قصراً ومُتَنَزَّها « لإسماعيل » . ولم يُسَمِّ لنا « حافظ » بطله ، بل نَعَتَه بأحد أبناء النيل ، مع أن « المويلحى » استعار من كتاب « الهمذانى » اسم « عيسى بن هشام » .

و « سَطِيح » مجموعة قصص يرويها أحد أبناء النيل ، وهى ليست قصصا بالمعنى الذى نفهمه الآن من القصة . ويصح أن نعتبرها حوادث أو مشاهدات تكاد تكون كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، ولكنها على الرغم من ذلك تحمل طابَعاً واحدا ، ولا سيما فى طريقة سرد القصة وأسلوبها . ولها بطلان مهمان : الأول : الراوى نفسه ، وهو أحد أبناء النيل كما أسلفنا القول . والثانى : « سَطِيح » .

أما شخصية الراوى فهى شخصية أديب بائس من رُوَّاد الإصلاح يَرْثِى لأمته مما تعانيه من متاعب فى الأدب والسياسة والاجتماع . فينقُد أحوالها ويُنْحِى باللائمة على أهلها فى لهجة صريحة قاسية . وقد وصفه « حافظ » فى الكتاب على لسان « سطيحه » فقال : « أديب بائس ، وشاعر يائس ، دَهمته الكوارث ، ودَهَتْه الحوادث ، فلم تجد له عزما ، ولم تُصِبْ منه حزماً » .

وهو يَعْنِي نفسه بلا مراء .

أما شخصية « سَطِيح » فهى شخصية حكيم صالح ، وقد أتى به المؤلف ، ليكون حَكَماً عدلا ، فيما يعرضه عليه الراوى وزملاؤه من قضايا العصر ، اجتماعية كانت أو أدبية ، فينطق بالقول الفَصْل ، فالراوى يعرض القضية ، و « سَطِيح » يحكم فيها . والراوى هو الذى يرتاد الأماكن ، ويلاقى الناس ، فيشاهد وينقُد ويناقش ، فيفصح لنا عما يجيش فى صدره من آلام وآمال

ولما كان « المُوَيْلِحِيّ » قد اختار بطله من بين شخصيات العرب الروائية ، أراد « حافظ » أن يحذُوَ حَذْوَه فى اختيار البطل الذى سمى به كتابه . فعاد إلى عصر الجاهلية يبحث بين دفائنه ، فعثر على كاهن صالح من العَرّافين ، يُدعى « سَطِيحاً » هو أقرب إلى شخصيات الأساطير منه إلى الشخصيات الحقيقية ، اسمه « رَبِيع بن ربيعة الذِّيبى أو الذئبى » ولقب بـ « سَطِيح » لأنه كان سَطِيحًا أى لا عظم له ، لا يستطيع الوقوف أو المشى . فإذا أرادوا نقله ، طَوَوْه طَيَّ الحصير . ولم يكن له رأس ولا عنق ، ولكن وجهه فى صدره . وقد تكهن بفتح الحبشة لليمن ، وبظهور الإسلام . ويقال إنه مات فى السنة التى ولد فيها النبىّ ، وولد فى السنة التى انهار

فيها « سَدُّ مأرِب » عندما طغَى عليه « سيل العرم » . أى عُمِّرَ نحو سِتِّمِائَةِ سنة .

ومن الفائدة أن نأتىَ بمثال من كلامه ، فقد ذهب إليه « عبدالمسيح بن عمرو الغسانى » من قِبَلِ ملك الفرس ؛ ليستطلعَه رأيه فيما وقع « لكسرى » يوم ولادة النبى من خمود النيران ، وارتجاج الإيوان ، فلما رآه « سطيح » وكان يلفظ نَفَسه الأخير ، قال : « عبدالمَسِيح ، على جمل مُشِيح ، وافىَ إلى « سطيح » وقد أشْفَى على الضريح ، بعثك ملك « ساسان » ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران . . . الخ »

وهذا الأسلوب يدلنا على أنه من وَضْع المتأخرين ، تقليداً لسجع الكُهَّان ، إذ ليس فيه من بلاغة الجاهلية شىء

وقد وجدنا « حافظا » يُنْطِق « سَطِيحه » فى كتابه بهذا السجع ، ولكن فى ألفاظ منتقاة ، وأسلوب حسن .

ونحن إذا ألقينا نظرة إجمالية على الكتاب ، وجدناه قد جمع بين دفتيه الكثير مما كانت تتحدث به الصحف عن شخصيات ذلك العصر ، وما تعالجه من الموضوعات الشائعة فى ذلك العهد . فهو سجِل مهم يمثل لنا مَظْهَراً من حياة « مصر » فى حِقْبة من تاريخها . وهو يمثل فى الوقت نفسه جانبا من حياة « حافظ »

ونفسيته . فقد كتبه فى الفترة التى تلت خروجه من الجيش، وعودته من « السودان » ، على أثر اتهامه بالاشتراك فى الحركة الثورية التى يسميها فى كتابه بحادث الذخيرة ، وقد وقع هذا الحادث فى الجيش المصرى ، بعد إخماد الثورة المهدية ، واستعادة « السودان » .

هذه الفترة من حياة « حافظ » التى تَلَتْ خروجه من الجيش عانى فيها من شَظَف العيش الشىء الكثير . فرأيناه فى كتابه موتوراً ساخطا على الحياة ناقما على انحلال الأخلاق ، قاسيا فى الحكم على أهل وطنه ، شديد الوطأة على المحتلين وأعوانهم ، يملأ اليأس فراغ قلبه ، فلا يجد أمامه ملجأ يحتمى فيه غير الفضيلة والدين . فظهر بمظهر المصلح الحكيم ، ينثر المواعظ والحكم فى سخاء كبير .

هذا الجانب من حياة « حافظ » ، وهو جانب الرجل الناقم والمصلح الواعظ ، نجده واضحا فى شعره أيضا . ويكاد يكون لكل موضوع عالجه فى كتاب « سَطِيح » نظير له فى منظوماته . ولكن ديوانه أوسع مدى ، فقد تناول جوانب أخرى من حياته ، لا تجدها فى « سَطِيح » ، كغرامه بالشراب . أما الحب فلم يفصح « حافظ » عنه لا فى « سَطِيحه » ، ولا فى ديوانه . والظاهر أن حياته كانت خالية من المغامرات الغرامية ، أو أنه لم يتأثر بالحب إلى الحدّ الذى يدفعه للتعبير عنه نظما أو نثراً .

أما موضوعاته التى طرقها فى الكتاب فكثيرة ، نأتى بالمهم منها فنقول :

لقد تكلم عن تحرير المرأة ، وتصدى للدفاع عن « قاسم أمين ». ثم أخذ يتحدث عن إخواننا السوريين ، فذكر مناقبهم ، وعدَّدَ أفضالهم على اللغة العربية . ونسب لهم بجانب ذلك بعض هنات بحسب رأيه . ثم يأتى دور الامتيازات الأجنبية ، فيقول فيها : « مادام امتياز الأجانب ، فلغير المصرى عزة الجانب . الرومىّ يطعُن بمديته ، ويستظل بِعَلَمِ دولته ، والمصرى يحمل القتيل ، ويخضع خضوع الذليل » .

وقد تحدَّث عن الصِّحافة ، فذكر صحافة السوء بالسوء ، وقال على لسان أحد الصحفيين شاكيا : « فأنت اليوم بين أمرين : إما الفضيلة والنَّعْش ، وإما الرذيلة والعيش . »

ثم يتكلم عن « شوقى » فينقُدُه فى غير رحمة ، ثم يدافع عنه ، دفاع المستضعَف . ويترك الحكم أخيرا إلى « سَطيح » ، فيقول : « ولو مُنِحَ من دقة المبانى ، مامنح من رقة المعانى ، فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أَخْلَقَ ديباجته ، لكان شاعركم غير مدافَع ، وواحدَكم غير منازَع . »

هذا رأى « حافظ » فى « شوقى » فى ذلك العهد ، والظاهر أنه كانت بين الشاعرين منافسة أدت إلى شىء من التباغُض . وقيل : إن « حافظا » كان يطمع فى التقرب إلى العرش ، وإلى دار الخلافة ، فلم يمكنه « شوقى » من ذلك لمكانته فى القصر الخديوى ، وصلته برجال الحكم من العثمانيين .

ثم رأيناه يتكلم بالخير كل الخير ، عن الإمام « محمد عبده » ، والزعيم « جمال الدين الأفغانى » . فيقول عن صلة الإمام بالإنجليز : « كم زحزح عنا حادثا ، ودفع كارثا ، ولو كان حيًّا يوم دار الفلك لنا بالنحوس فى « دنشواى » ، لرأيتَ غير الذى رأيتَ من ذلك القِصاص . . . »

ولا ينسَى الجامعة المصرية ، فهو يحثّ المصريين ملحّا متحمسا على بذل الأموال فى سبيل إنشائها ، ولما كانت ثورة « السودان » سببا فى خروجه من الجيش ، فقد رأيناه يخصُّها بثلاثين صفحة من كتابه ، مع أن الكتاب كله لا يزيد على مائة وخمسين صفحة ، وفى حديثه عن الفتنة يسهب فى وصفها مندِّداً بالخَوَنة ، متحدثا عن بعض الشخصيات الكبيرة من الإنجليز ، منتقدا سياستهم أشد انتقاد ، ويعقّب على هذا بحديث عن المعتمد البريطانى « اللورد كرومر » والسياسة الإنجليزية فى القطر المصرى . وهو

يخصص لها أكثر من عشرين صفحة . وفى هذا الفصل ينقل للقارئ مقالا بأكمله للشيخ « على يوسف » نشره فى « المؤيد » عنوانه : « السياسة الضعيفة العنيفة » مَغْزاه أن المحتلين اضْطُرُّوا إلى استعمال العنف ، ليستروا وراءه ضعف سياستهم ، فالإنسان إذا ضعُفَ فى الحجة والرأى ، لجأ إلى القوة والعنف ، وهو لا يُغْفِل فى هذا الفصل حادث « دنشواى » المعروف . و « حافظ » إذا تكلم فى السياسة وجدناه عنيف القول ، صريح الرأى ، غير مُداج ولا مُحَاب ، وهو الوطنى المتطرف ، الذى لا يطيق الذل لأبناء وطنه .

وفى الكتاب بضع صفحات لطيفة ، فى وصف الطبيعة والنيل والأسواق المصرية ، وشيخة الزار ، والراقصة ، وماشابه ذلك .

فعن شيخة الزار يقول : « تدخل على المقصورات فى القصور ، والمخدورات فى الخدور ، فتفتق بطبلها طَبْلَ آذانهن ، وتهز بأسماء الجن نواعم أبدانهن ، وتعمى بدخان البخور مُجْلَ أعينهن ... »

وحسبنا ماقلناه عن موضوعات الكتاب ، فهو على الجملة صدى لنفسية « حافظ » ، ومرآة صادقة لعصره .

أما إذا أردنا أن نوازن بينه وبين زميله « حديث عيسى بن هشام » فنلخص الرأى فى كلمتين : بينما نرى « المويلحى » يحاول الارتفاع

(٥١)

بكتابه عن المقامة ، والدنوّ من القصة الفنية ، بما يرسمه من شخصيات ناضجة ، ويصوره من وقائع شائقة ، نرى « حافظا » متمسكا بالمقامة لا يخرج عن إطارها ، فهو لا يُعْنَى فى قصته بالناحية الفنية عنايته بالناحية الخطابية والوعظية.

أما لغة الكتابين ففصيحة ، تسير على النمط القديم ، سَلِسَة خالية من التعقيد والألفاظ المهجورة . تقرؤها فيخيل لك أن المتحدثين يختاران ألفاظهما ، وينظمانها حبّة حبّة ، كما يتخيّر الجوهرىّ حَبّات ماسِهِ ، وَيَنْظِمها فى عِقد ثمين . غير أننا نرى « المويلحى » يتبسّط فى أسلوب حِواره ، ويَجْدُ له جَدْلا طبيعيا ، فتأتى جمله نابضة بالحياة ، تحمل طابَعا محليا ، فى حين أننا نرى « حافظاً » شديد العناية بلغته من البداية حتى النهاية ، تغلب على أسلوبه لهجة البداوة العربية .

هذا ولما كان « سطيح » قد ظهر فى وقت لم يكن فيه للقصة نصيب وافر ، ومقام يذكر ، فإننا نعترف « لحافظ إبرهيم » بفضل السَّبْق إلى المساهمة فى وضع أساس القصة الحديثة .

وفى هذا من التجديد ما فيه .

فهرس

	صفحة
استقبال لمعالى الدكتور طه حسين بك	١
الفنان فى صورة ملك	١٧
أبو الهول يناجى القاهرة	٢١
أحمد لطفى السيد	٣٣
عبد العزيز فهمى	٣٩
طه حسين	٥٥
الدكتور هيكل	٦٥
منصور فهمى	٨١
أحمد أمين	٩١
العقاد والمازنى	٩٩
فكرى أباظه	١٠٧
أنطون الجميل	١١٧
الشيخ أبو العيون	١٢٧
اسماعيل تيمور	١٤١
بشر فارس	١٤٩
زكى طليمات	١٥٧
نجيب الريحانى	١٦٩
إلى « موباسان »	١٨٩
إلى « بلزاك »	١٩٩
قصة « حافظ »	٢١٥

أحدث مؤلفات

محمود تيمور

كل عام وأنتم بخير

اليوم خمر

إحسان لله

حواء الخالدة

شفاه غليظة

عطر ودخان

فرعون الصغير

عوالى

المنقذة

أبو شوشة

المخبأ رقم ١٣

أبو الهول يطير

سلوى فى مهب الريح

خلف اللثام

كليوباترة فى خان الخليلى

نداء المجهول

مكتوب على الجبين

سهـــاد

قال الراوى

قنـابل

فن القصص

بنت الشيطان

T

S Bach

B

0386

PB-35496
5-17
CC

NYU - BOBST
31142 02884 4390
PJ7538 .T3
Malami´¿ w
AST